80
حِكَايَة وحِكَايَة

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: ٨٠ حكاية وحكاية

إعداد : يسري محمد عبد الله

رقم الإيداع: ٩١١٩ / ٢٠١٧.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٤٤.

القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / يسري حسن.

٢٠١٧

الإدارة

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail dar_aleman@hotmail.com

فرعنا في الجمهورية اليمنية

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة

مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار

جوال: ٠٠٩٦٧٠٧٧٥٣٠٩٩٣٥

80

حِكَايَة وَحِكَايَة

جمع وترتيب

يسري محمد عبد الله

دار القمة
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

اَلْحَمْدُ للهِّ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ الخَلْقِ وَسَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ اَلْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

أَمَّا بَعْدُ :

مَنْ لَيْسَتْ لَهُ بِدَايَةٌ مُحْرِقَةٌ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِهَايَة مُشْرِقَةٌ ، وَحَيَاةُ الأَوَّلِيْنَ وَتَارِيْخُ السَّادَة وَالصَّالِحِيْنَ وَالأُمَرَاء وَالفَاتِحِيْن مَلِيْئَةٌ بِالأَمْثِلَة الرَّائِعَة ، وَالدَّلَائِل النَّيِّرَة عَلَى حُرْقَتِهْم في طَلَبِ العِلْم ، وَبُطُولَاتِهمْ في نَشْرِ الدِّيْن وَالصَّبْر عَلى أَذى المُعَارِضِيْن ، في حَيَاتِهم أَرْوَع المَوَاقِف وَأَجْمَلُ اللَّطَائِف في الصَّبْر والثَّبَاتِ وَالأَمَانَة والجِهَادِ وانْتِظَار الفَرَج بَعْدَ الكُرَب والضِّيْق ، فَكَانُوا مَصَابِيْح الدُّجى، وَضِيَاءً للوَرَى ، حَيَاتِهم في حَرَكَة دَائِمَة ، لَا يَعْرِفُونَ للحُزْنِ طَرِيْقًا، فَكَانَتْ البَسْمَةُ تَمْلَأُ وُجُوهَهُمْ ، وتُؤَثِّر في النَّاسِ عِنْدَ لُقْيَاهُمْ .

وَلِذَلِكَ فَقَدْ سِرْتُ في بَسَاتِيْنِهِمْ وَرَوْضَاتِهِمْ أَقْطِفُ لَكُمْ مِنْ قَصَصِهِمْ وَحِكَايَاتِهِمْ مَا يَدْفَعُنَا للعَمَل ، وَيَكُونُ لَنَا زَادًا يُعِيْنُنَا عَلَى فَهْم سُنَن اللهِ في خَلْقِه، تَارَةً للاعْتِبَار؛ وَأُخْرَى لِلابْتِكَار، فَسِجِلُّهُمْ حَافِلٌ وَمَاتِعٌ لِمَنْ اطَّلَعَ وَجَالَ دُونَ مَلَل أَوْ كَلَل ، وَلَمْ أَغْفِلْ عِنْدَ القَطْف حِكَايَتِهِمْ في الابتِسَامَة واللُّطْف، وَحَرِصْتُ وَأَنَا أَقْطِفُ الثِّمَارَ عَلَى أَنْ أَنْتَقِي الطَّيِّبَ النَّافِع ، فَإِنَّ في الصَّحِيْح غِنَى عَن الضَّعِيْف ، والنَّافِعُ أَحْسَنُ مِنَ الضَّارَ مَعَ إِسْنَاد كُلِّ خَبَرٍ لِصَاحِبه، فَالاعْتِزَاز بِأَدَبِنَا الرَّفِيْع ، وَتَارِيخُنَا الحَافِلِ، وَدِيْنِنا العَظِيْم مَصْـدَرُ عِزِّنَا ، فَهُوَ

المَعِيْنُ الَّذِي لَا يَنْضَبُ ، وَالنَّبْعُ الصَّافِي مِنَ الكَورِ .

سَائِلاً اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي هَذَا خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كُلَّ مَنْ اطَّلَعَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيْلِ .

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ .

وَكَتَبَهُ

يُسْرِي مُحَمَّد عَبْدُ اللهِ

عَفَا اللهُ عَنْهُ

١

كيسي اللؤلؤ

قال عبد الله بن أبي الفوارس : سمعت القاضي أبا بكر محمد بن عبد الباقي البزاز يقول : كنت مجاورًا بمكة- حرسها الله تعالى - فأصابني يومًا من الأيام جوع شديد لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع ، فوجدت كيسًا من إبريسم مشدودًا بشرابة من إبريسم أيضًا فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أرْمثله ، فخرجت فإذا الشيخ ينادي عليه ، ومعه خرقه فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يَرُدَّ علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ ، فقلت : أنا محتاج وأنا جائع ، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به ، وأرد عليه الكيس، فقلت له : تعالى إليَّ ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة ، وعلامة اللؤلؤ وعدده ، والخيط الذي هو مشدود به ، فأخرجته ودفعته إليه، فسلَّم إليَّ خمسمائة دينار ، فما أخذتها وقلت : يجب عليَّ أن أعيده إليك ولا أخذ له جزاء فقال لي : لابد أن تأخذه ، وألح عليَّ كثيرًا فلم أقبل منه ، فتركني ومضى .

وأما ما كان مني فإني خرجت من مكة وركبت البحر ، فانكسر المركب وغرق الناس ، وهلكت أموالهم ، وسلِمْتُ أنا على قطعة من المركب ، فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب ، فوصلت إلى جزيرة فيها قوم ، فقعدت في بعض المساجد ، فسمعوني أقرأ ، فلم يبقى في تلك الجزيرة أحد إلا جاء وقال: علمني القرآن ، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

قال : ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف ، فأخذتها أقرأ فيها، فقالوا لي : تحسن تكتب ؟، فقلت : نعم ، فقالوا : علمنا الخط ، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب فكنت أعلمهم ، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنت أعلمهم ، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير ، فقالوا لي بعد ذلك : عندنا صبية يتيمة ، ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعت ، فقالوا : لا بد ، وألزموني ، فأجبتهم إلى ذلك .

فلما زفوها إليَّ مددت عيني أنظر إليها ، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقًا في عنقها ، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه ، فقالوا : يا شيخ ؛ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ، ولم تنظر إليها ، فقصصت عليهم قصة العقد ، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت : ما بكم ؟! ، فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول : ما وجد في الدنيا مسلماً مثل الذي ردَّ عليَّ هذا العقد، اللهمَّ اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي ، والأن قد حصل ، ثم قال : فبقيت معها مدة ورُزقت منها بولدين ، ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا ووالداي ثم مات الولدان فبعت العقد بمائة ألف دينار ، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال (١).

(١) على طبقات الحنابلة ، لابن رجب ، جـ٣ ، ص (١٩٥-١٩٧) ، ترجمة القاضي أبي بكر محمد ابن عبد الباقي البزار.

٢

الجمل خرَّ ساجدًا

كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه ... أي يستخرجون عليه الماء من البئر ، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره ، وهاج عليهم ، فلم يستطيعوا استعماله ولا الركوب عليه ، فتعطلت منافعهم ، والناس فقراء لا يقدرون على شراء غيره .

فجاء أصحابه إلى رسول الله – ﷺ – فقالوا : إنه كان لنا جمل نسي عليه ، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره ، وقد عطش الزرع والنخل .

فقال رسول الله – ﷺ – لأصحابه : «قوموا» ، فقاموا يمشون معه ، فمضى حتى دخل البستان ، فإذا الجمل في ناحية منه ، فمشي النبي – ﷺ – فخاف الأنصار أن يؤذي الجمل رسول الله – ﷺ – ، فقالوا : يا نبي الله ، إنه قد صار مثل الكلب الكليب ... أي مثل الكلب الهائج الثائر ... وإنا نخاف عليك صولته ... فقال رسول الله – ﷺ – : « ليس عليه منه بأس ... » ، ومضى يمشي إليه .

فلما نظر الجمل إلى رسول الله – ﷺ – أقبل يمشي نحو النبي – ﷺ – حتى خر ساجدًا بين يديه فأخذ رسول الله – ﷺ – بناصيته أي بأعلى رأسه ، والجمل بين يديه ذليل هادئ منساق بين يديه ... حتى أدخله في عمله ، وخطمه – ﷺ – وربطة ، فعجب الصحابة وقالوا : يا رسول الله هذه بهيمة لا

تعقل تسجد لك ... !! ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك... فقال رسول الله – ﷺ – : « **لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها** »(١).

(١) قصة الجمل في مُسند الإمام أحمد (٣/ ١٨٥) ، قال ابن كثير في البداية والنهاية : هذا إسناد جيد، وخرجها الإمام الوادعي في الصحيح المُسند من دلائل النبوة رقم (٨٧) ، وصحح الحديث الألباني في «الجامع الصحيح» رقم (٧٧٢٥) .

٣

خشبة فيها الأمانة في عرض البحر

من كان حريصًا على أداء الأمانة وفقه الله ولو رماها في عمق البحر والقصة التي رواها البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده تدل على أن خشبةً حفظت الأمانة وقطعت لجج البحر حتى توصلها إلى أهلها .

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ : « أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، قال : ائتني بُشَهَداءُ أُشهدهُم، قال : كفى بالله شهيدًا ، قال : ائتني بكفيل ، قال: كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مُسمَّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي كان أجَّله فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زَّجج موضعها ثُمَّ أتي بها البحر ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استلفت من فلان ألف دينار فسألني كفيلا فرضي بك ، وسألني شهيدًا فقلت كفى بالله شهيدًا ، وإني قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه بالذي له فلم أجد مركبًا وإني أستودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف ينظرُ وهو في ذلك يطلبُ مركبًا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا يجيء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبًا فلما كسرها وجد المال والصحيفة .

ثم قدم الرجل الذي كان تسلَّف منه ، فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت

جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء ؟!، قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا الذي جئتُ فيه ؟! ، قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشية ، فانصرف بألفك راشِدًا » [١].

(١) رواه البخاري (٦٧٣٤) ومسلم (٢٠٦) ، ومسند الإمام أحمد (٢٢١٧١) .

٤

الحمد لله الذي مسخك كلبًا !!

ذكر شهاب الدين الأبشيهي في كتابه المتسطرف في كل فن مستطرف : كان لأبي حنيفة النميري سيف ليس بينه وبين العصا فرق وكان يسميه لُعاب المنية .

قال أحد جيرانه : أشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته وقد سمع حسًّا في داره وهو يقول : أيها المغتر بنا المجترئ علينا بئس والله ما اخترت لنفسك ، خير قليل وسيف صقيل ، وهو لعاب المنية الذي سمعت به ، اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ، ثم فتح الباب على وجل ، فإذا كلب قد خرج ! ، فقيل له : إنما هو كلب ، فجلس وهو يقول: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفاني حربًا .

٥

امرأة من أهل العراق لها خمس بنات

قدمت امرأة من العراق على عهد عمر بن عبد العزيز ... فلما صارت إلى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ .

فقالوا : لا ، فلجي (أي ادخلي) إذا أحببت ، فدخلت المرأة على فاطمة ، زوجة عمر – وهي جالسة في بيتها – وفي يدها قطن تعالجه ، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها : ادخلي ، فلما دخلت المرأة رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئًا له أهمية فقالت : إنما جئت لأعمِّر بيتي من هذا البيت الخراب؟! .

فقالت لها فاطمة : إنما خَرَّبَ هذا البيت عمارة بيوت أمثالك ! ، فأقبل عمر بن عبد العزيز حتى دخل الدار ، فمال إلى البئر في ناحية الدار ، فانتزع فيها دِلاء صبها على الطين كان أمام البيت ؛ وهو يكثر النظر إلى فاطمة .

فقالت لها المرأة : استتري من هذا الطَّيَّان فإني أراه يُديم النظر إليك ! ، فقالت لها : ليس هو بطَيَّان ، هو أمير المؤمنيين !! .

ثم أقبل عمر فسلَّم ودخل بيته فمال إلى مُصلى كان له في البيت يصلي فيه ، فسأل فاطمة عن المرأة ؟ ، فقالت : هي هذه .

فأخذ مكتلاً (أي زنبيلاً) له فيه شيء من عنب ، فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ، ثم أقبل عليها فقال : ما حاجتك ؟ .

فقالت : امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسل كسد (أي لا يرغب في

الزواج منها أحد) ، فجئتك أبتغي حُسن نظرك لهُن .

فجعل يقول : كُسُل كُسد ويبكي ، فأخذ الدواة والقرطاس إلى والي العراق، فقال للمرأة : سمِّي كُبراهُنَّ ، فسمتها ففرض لها (أي جعل لها قدرًا معلومًا من المال في بيت مال المسلمين) ، فقالت المرأة : الحمد لله ، ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله .

ففرض لها ، فلما فرض للأربع استنفّذها الفرح فدعت لها فجزاته (أي قالت له : جزاك الله خيرًا) ، فرفع يده (أي أمسك عن الكتابة) وقال : قد كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله ، فمري هؤلاء الأربع يُفضن (أي يعطين) على هذه الخامسة .

فخرجت بالكتاب حتى أتت به أهل العراق ، فدفعته إلى والي العراق ، فلما دفعت إليه الكتاب بكى واشتد بكاؤه ، وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب!، فقالت : أمات ؟، قال : نعم ، فصاحت وولولت .

فقال : لا بأس عليك ، ما كنت لأردَّ كتابه في شيء ، فقضى حاجتها وفرض لبناتها [١].

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله– لابن الحكم ، ص ١٧٧ .

٦

الوفاء في سداد القرض

حكى أن بعض طلبة الشيخ الكشفلي اشتكى إليه فاقة ، وأنه تأخرت عنه نفقته التي ترد عليه من أبيه ، فأخذ الكشفلي بيد الطالب وذهب إلى بعض التجار بقطيعة الربيع – وهي محلة في الكرخ من بغداد – فاستقرض منه خمسين دينارًا ، أي طلب من التاجر أن يقرضه خمسين دينارًا .

فقال التاجر : حتى نأكل شيئًا من السماط ، ثم قال التاجر : يا جارية هات المال ، فأحضرت جاريته شيئًا من المال فوزن منه خمسين دينارًا ودفعها إلى الشيخ ، فلما قاما إذا بوجه الطالب الفقيه قد تغير !! فقال له الكشفلي : مالك؟.

فقال : يا سيدي قد سكن قلبي حب هذه الجارية !! .

فرجع به الشيخ إلى التاجر فقال : قد وقعنا في فتنة أخرى ؟، قال : ما هي ؟.

قال : إن الفقيه قد هوى الجارية ، فأمر التاجر أن تخرج وسلمها إليه ، وقال: ربما تكون قد وقع في قلبها منه مثل الذي وقع في قلبه منها ، فلما كان بعد ليالٍ قدمت على الفقيه نفقته من أبيه ستة مئة دينار ، فوفَّى التاجر ما كان عليه من ثمن الجارية والقرض [1].

---

(١)طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/ ٣٧٣) ، في ترجمة الحسين بن محمد الطبري .

٧

اختلفوا معه فضربوه

قال ابن مُقصد العبدلي في نادرة معالم العلم : يقال إن الشافعي -رحمه الله- قدم إلى مِصر سنة تسع وتسعين ومائة في أول خلافة المأمون ، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه ، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر ، ولم يزل الشافعي بمصر إلى أن ولى السري ابن الحكم البلخي - من قوم يقال لهم الزط - مصر واستقامت له ، وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحدًا عليه ، وكان الشافعي محببًا إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه ، وحُسن كلامه وأدبه وحلمه ، وكان بمصر رجل من أصحاب مالك ابن أنس يقال له فتيان فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيرًا ويجتمع الناس عليهما فتناظرا يومًا في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره .

فأجاب الشافعي - رحمه الله- بجواز بيعه على أحد أقواله ، ومنع فتيان منه، لأنه يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي فظهر عليه الشافعي في الحجاج فضاق فتيان بذلك ذرعًا فشتم الشافعي شتمًا قبيحًا فلم يرد عليه الشافعي حرفًا ومضى في كلامه في المسألة ، فرفع ذلك رافع إلى السري ، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه فأخبره بما جرى ، وشهد الشهود على الفتيان بذلك ، فقال السري : لو شهد آخر مثل الشافعي على الفتيان لضربت عنقه ، وأمر فتيان فضُرب بالسياط وطيف به على جمل وبين يديه مناد ينادي :

هذا جزاء من سب آل رسول الله - ﷺ - .

ثم إن قومًا تعصبوا لفتيان من سفهاء الناس وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقى وحده ، فهجموا عليه وضربوه فحُمِل إلى منزله ، فلم يزل فيه علِيْلاً حتى مات - رحمه الله- .

٨

لا تدع عليه فإنه من أولياء الله تعالى

يقول ابن قدامة المقدسي في كتاب التوابين : وحكى عن مالك بن دينار ، قال : كان لي جار يتعاطى الفواحش فأتى إليَّ الجيران يشكون منه ، فأحضرناه وقلنا له : إن الجيران يشكونك ، فسبيلك أن تخرج من المحلة ، فقال : أنا في منزلي لا أخرج ! ، قلنا : تبيع دارك ! قال : لا أبيع ملكي ، قلنا : نشكوك إلى السلطان ، قال : أنا من أعوانه ، قلنا : ندعو الله عليك ، قال : الله أرحم بي منكم .

فلما أمسينا قمتُ وصليت ودعوت عليه ، فهتف بي هاتف : لا تدعُ عليه فإنه من أولياء الله تعالى ، فجئت إلى باب داره ودققت الباب ، فخرج فظن أني جئت لأخرجه من المحلة ، فتكلم كالمعتذر ، فقلت : ما جئت لهذا ولكن رأيت كذا وكذا ، فوقع عليه البكاء وقال : إني تبت بعد ما كان هذا ، ثم خرج من البلد فلم أراه بعد ذلك .

واتفق أني خرجت إلى الحج فرأيت في المسجد الحرام حلقة فتقدمت إليهم ، فرأيته مطروحًا علِيْلاً فلم ألبث أن قالوا : مات الشاب – رحمه الله – .

٩

كن رفيقي ونفقتك ومؤنتك عليَّ

قال أبو بكر الطرطوشي : أخبرنا أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال : لقد جرت في هذه الدوار، وأشار إلى دار هناك قصة عجيبة ! ، قلت : وما هي؟!، قال : كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة فاتفق أن جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمار فشغل عليه ، فأمر إنسانًا هناك فأعانه على إنزاله ثم جلس يأكل ، فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره ؟، فأخبره أنه من أهل الكوفة ، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد .

فقال له الرجل : كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ، ونفقتك ومؤنتك عليَّ ، فقال له الرجل : وأنا أيضًا أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك ، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة ، إلى أن وصلا إلى تكريت ، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه ، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجة ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ولم يَرَ أحدًا ، فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم ، فلم يزل يسير ويجد في السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ؟، فقالوا : ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك،

فظننا أنك أمرته ، فكر الرجل راجعًا إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرًا ولا سمع له خبرًا ، فيئس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال ، فوصلها نهارًا فقيرًا جائعًا عُريانًا مُجهدًا ، فاستحى أن يدخلها نهارًا فتشمت به الأعداء - نعوذ بالله من شماتتهم - وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب ، فقيل له : من هذا قال فلان، يعني نفسه ، فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه .

وقالوا : الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية ، وأطلت سفرك واحتجنا ، وقد وضعت زوجتك اليوم والله ما وجدنا ما نشتري به شيئًا للنفساء ، فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا .

فلما سمع ذلك ازداد غمًّا على غمِّه ، وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك، فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك ، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام فناداه فعرفه فأجابه وشكر الله على سلامته ، فقال له : افتح حانوتك وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن ، فنزل البياع إلى حانوته ، وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفافه إلى قعر الحانوت فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه ، فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال : يا عدو الله ائتني بمالي ، فقال له البياع: ما هذا يا فلان ! ، والله ما علمتك متعديًا وأنا أبدا ما جنيت عليك ولا على غيرك ، فما هذا الكلام ؟! ، قال : هذا خراجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي .

فقال البياع : والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد علي بعد العشاء واشترى مني

عشاءه وأعطاني هذا الخرج ، فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح والحمار في دار جارنا والرجل في المسجد نائم ، قال له : احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل ، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد ، فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبًا ، فقال : مالك ؟ قال : أين مالي يا خائن ، قال : ها هو في خرجك ، فوالله ما أخذت منه ذرة ، قال: فأين الحمار وآلته قال : هو عند هذا الرجل الذي معك ، فعفى عنه وخلى سبيله ومضى بخراجه إلى داره ، فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود ، فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره (١).

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ، للأشيهي .

١٠

امرأة كريمة

عن أبي عبد الله الواقدي القاضي قال : جاءتني جاريتي يوم عرفة فقالت لي: ما عندنا من آلة العيد شيء .

فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض ، فأخرج إليَّ كيسًا مختومًا فيه ألف ومئتا درهم ، فانصرفت به إلى المنزل ، فلما استقررت جالسًا حتى استأذن علي رجل من بني هاشم ، فذكر تخلف غلته واختلال حاله وحاجته إلى القرض ، فدخلت على امرأتي فعجبها من ذلك فقالت : فما عزمُك؟، قلت : أشاطره الكيس ، فقالت : والله ما أنصفت ، لقيت رجل سوقه فأعطاك شيئًا وجاءك رجل له من رسول الله - ﷺ - رحمٌ فتعطيه نصف ما أعطاك السوقه .

فأخرجت الكيس بخاتمه فدفعته إليه ، ومضى صديقي التاجر يلتمس منه القرض فأخرج إليه الكيس بخاتمه ، فلما رأه عرفه فجاءني به ، ثم وافاني رسول يحيى بن خالد يقول : إن الوزير شغل عنك بحاجات أمير المؤمنين وهو يطلبك، فركبت إليه وحدثته حديث الكيس وانتقاله .

فقال : يا غلام ! هات تلك الدنانير ، فجاء بعشرة آلاف دينار فقال : خذ أنت ألفين ، وأعط الهاشمي ألفين ، وصديقك التاجر ألفين ، وامرأتك أربعة آلاف دينار، فإنها أكرمكم [1].

(١) تاريخ بغداد (٣/ ٢١) .

١١

ذئبٌ يتكلم

عن أبي سعيد الخدري - ﷺ - قال : عدا ذئبٌ على شاة فأخذها ، فطلبه الراعي فانتزعها منه ، فأقعد الذئب على ذنبه ، فقال : ألا تتقى الله وتنتزع مني رزقًا ساقه الله إليَّ .

فقال الراعي : يا عجبي ، ذئب يكلمني كلام الإنس ، فقال له الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ، محمد - ﷺ - بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق .

قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه ، حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زوايها (الغنم) ثم أتى رسول الله - ﷺ - فأخبره فأمر رسول الله - ﷺ - فنودي الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للراعي : أخبرهم ، فأخبرهم الراعي بما سمع من الذئب ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق ، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشِراك نعله، يخبره فخذه بما أحدث أهله بعده » (١).

(١) قال ابن كثير : أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٨٤) وهو إسناد على شرط الصحيح .

١٢

رجل حبس أربع سنوات ظلمًا

بينما كان المنصور جالسًا في مجلسه المبنيِّ على أعالي باب خُراسان من مدينته التي بناها وأضافها إلى اسمه ، وكان مشرفًا على دجلة ، جاءه سهم عاثر سقط بين يديه فذعز منه ، ثم أخذه وجعل يقلبه فإذا مكتوب عليه من الديشتين :

أتطمع في الحياة إلى التنادي وتحسب أن مالك من نفاد
ستسأل عن ذنوبك والخطايا وتسأل بعد ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الأولى :

أحسنت ظنك بالأيام إذا حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هي المقادير تجري في أعنتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يومًا تريك خسيس القوم ترفعه إلى السماء ويومًا تخفض العالي

وإذا على جانب السهم مكتوب :

« همذان منها رجل مظلوم في حبسك» .

فبعث من فوره برجل من خاصَّته ففتَّشوا الحبوس ، فوجدوا شيخًا في بنية من الحبس موثقًا بالحديد ، متوجهًا نحو القبلة ، يردِّدُ قوله تعالى :﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[الشعراء:٢٢٧] ، فسألوه عن بلده فقال: همذان ، حُمل الرجل ووضع بين يدي المنصور فسأله عن حاله ، فأخبره أنه رجل من أبناء مدينة همذان ، ومن أرباب نعمها ، ثم قال له : إن واليك علينا دخل بلدنا ، ولي ضيعة تساوي ألف ألف درهم ، فأراد أخذها مني ، فامتنعت ، فكبَّلَني بالحديد وحملني وكتب إليك : إني عاصٍ ، فطُرحت في هذا المكان .

فقال المنصور : منذ كم ؟، قال منذ أربعة أعوام .

فأمر بفكِ الحديد عنه والإحسان إليه ، وأنزله أحسن منزل ، ثم رُدَّ إليه بعد ذلك فقال له : يا شيخ ، قد رددنا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا ، وأما مدينتك همذان فقد وليَّناك عليها ، وأما الوالي فقد حكَّمناك فيها وجعلنا أمره إليك ، فجزاه خيرًا ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أما الضيعة فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليكَ فقد عفوتُ عنه .

فأمر له المنصور بمالٍ جزيل ، وبرٍّ واسع وحمله إلى بلده مكرمًا بعد أن صرف الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سُنَّة العدل والحق ، وسأل الشيخ مكاتبته في أخبار بلده وإعلامه بما يكون من ولاتها [(١)].

(١) ذكرها صاحب مروج الذهب (٢/ ٢٣٢) .

١٣

جاءت تطلب الطلاق

ورد في الأثر أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تطلب الطلاق من زوجها وقالت : يا أمير المؤمنين إني أخشى الكفر في الإسلام ، أي أعمال الكافرين وأنا على دين الإسلام ، فلما علم عمر رضي الله عنه أن لها منه أبناء تعاقب إنجابهم منه في زمن طويل ، جعل يتحسس الأسباب ويقف على أبوابها حتى يصف الدواء لهذا الداء ، وليعرف الأسباب التي دفعت بها إلى تلك الكراهية بعد زمن طويل من العشرة ، فسألها أكان التقصير في ما لك عليه من حقوق ؟، قالت : لا والله يا أمير المؤمنين ، لا أعيب عليه خُلُقًا ولا دينًا ولا قصَّر معي في حق من الحقوق ، ولكني لا أؤثر البقاء معه ، وبفطنة المؤمن ونور اليقين أدرك عمر رضي الله عنه السبب ، فقال لها : عودي إلى بيتك وابعثي به إليَّ ، وائتني بعد خمسة عشر يومًا لأقضي لك بما تحبين ، فعادت إلى بيتها وأرسلت به إليه ، وتأمل الأمير عمر رضي الله عنه فرأه دميماً ، قبيح المنظر ، مُختل الهندام ، منتعش الشعر ، متسخ الثياب .

فقال له عمر رضي الله عنه : يا هذا ، عُد إلى بيتك الساعة فهذب مظهرك ، ونظف ثيابك ، وشذِّب لحيتك ، وأكرم شعرك ، ونظم هندامك ، ولا أراك إلا هكذا، ففعل الرجل كما أمره أمير المؤمنين ، وانتظر رضي الله عنه المرأة أن تأتي عند أجلها الذي حدده لها فلم تأتي ، وبعد فترة من الزمن أرسل في طلبها ، فلما مثلت بين يديه قال لها : لِمَ لَمْ تأتنا في الموعد الذي حددناه لنقضي لك ما كنت تطلبين ؟.

قالت : لا يا أمير المؤمنين ، لقد ذهب الذي كنت بسببه أشكو ، والآن لا أحبُّ أن يفارقني ولا أفارقه .

فدعا عمر رضي الله عنه الناس وأرشدهم إلى خُلُق الجَمال في الإسلام ، وذكرهم بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين قال : « أيها الناس ! تزينوا لنسائكم ، فإنهن يُحببن أن تتزينوا لهن ؛ كما تحبون أن يتزين لكم » [1].

(١) الحب على خطى الحبيب ، لكمال أحمد عبد السلام .

١٤

سادة أهل الدنيا الأسخياء

يروى أن رجلا من الأنصار جاء إلى عبد الله بن العباس – رضي الله عنهما – فقال له: يا ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إنه ولد لي في هذه الليلة مولود وإني سميته باسمك تبركًا به ، وإن أمه ماتت ، فقال له عبد الله – رضي الله عنه – بارك الله لك في الصبية ، وأجزل لك في الصبر على المصيبة ، ثم دعا بوكيله فقال : انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا وفي العيش بؤس ، وفي المال قلة .

قال الأنصاري : جُعلت فداك ، لوسبقت حاتمًا بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدًا ، ولكنه سبقك فصرت تاليًا ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من جوده ، وطل كرمك أكثر من وبله [١].

(١) نادرة معالم العلم ، الجزء الأول ، ص ٢٤٩ .

١٥

كالأسد لقي خنزيرًا

ذكر ابن الأثر أن أبا جعفر المنصور لما أمره أخوه السفاح بحصار ابن هبيرة أحد الناقمين عليه، حاصره بواسط، وكان ابن هبيرة خندق على نفسه، فقال أبو جعفر: إن ابن هبيرة يخندق على نفسه كالنساء، فبلغ ذلك ابن هبيرة، فأرسل إلى أبي جعفر يقول: أنت الذي تقول كذا وكذا، فابرز إليَّ لترى، فأرسل إليه المنصور: لم أجد لي ولك مثل في ذلك إلا كالأسد لقي خنزيرًا فقال له الخنزير: بارزني.

فقال له الأسد: ما أنت لي بكفء، فإن بارزتك ونالني منك سوء كان عارًا عليَّ، إن قتلتك قتلت خنزيرًا، فلم أحصل على حمد، ولا في قتلي إياك فخر.

فقال له الخنزير: إن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جبنت عني.

فقال له الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطخ براثني بدمك [1].

---

(١) سمط النجوم العوالي (٣/ ٣٦٥)، لعبد الملك بن حسين الشافعي المكي، ط دار الكتب العلمية، ابن مقصد العبدلي في النادرة.

١٦

رجل مضحك

حدثني إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال : كان في المدينة رجل من بني هاشم ، وكان له قينتان يقال لأحداهما رشا ، وللأخرى جؤذر ، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستطرفين ، فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به ، فلما أتاه قال له : أصلحك الله إنك لفي لذتك ولا لذة لي ، قال: وما لذتك ؟ ، قال تحضر لي نبيذا فإنه لا يطيب لي عيش إلا به ، فأمر الهاشمي باحضار نبيذ ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر ، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه ، فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه ، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض ، فقال لهما : يا حبيبتي أين المرحاض؟ .

فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟، قالت: يقول غنياني.

رحضت فؤادي فخليتني أهيم من الحب في كل وادي

فاندفعتا تغنيانه فقال في نفسه : والله ما أظنهما فهمتا عني وما أظنهما إلا مكيتين ، وأهل مكة يسمونها المخارج ، فقال يا حبيبتي أين المخرج ؟ ، فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟ قالت : يقول غنياني .

خرجت لها من بطن مكة بعدما أقام المنادي بالعشي فأعتما

فاندفعتا يغنيانه فقال : لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام

يسمونها المذاهب فقال يا حبيبتي أين المذاهب ؟ فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول حبيبنا ؟ ، قالو يقول غنياني .

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هـذا التجنب

فغنتاه الصوت فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء ، فقال : يا حبيبتي أين بيت الخلاء ؟ ، فقالت إحداهما لصاحبتها : ما يقول سيدنا ؟ ، قالت: يقول غنياني.

خلا علي بقاع الأرض إذا ظنوا من بظن مكة واستراعائي الحزن

قال :فغنتاه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها الحشوش ، فقال: يا حبيبتي أين الحشوش ؟ ، فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا ؟ ، قالت: يقول غنياني .

أوحـشـوني وعـز صـبري فيهم مـا احـتـيـالي ومـا يـكـون فعالي

قال:فاندفعتا تغنيانه فقال:ما أراهما إلا كوفيتين وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما : يا حبيبتي أين الكنيف. فقالت إحداهما لصاحبتها يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحا من هذا الرجل قالت ما يقول قالت: يسأل أن تغني له.

تـكـنـفـنـي الهـــوى طـفـلا فـشـيـبـنـي ومـــا اكـتـهـلا

فقال : واويلاه وأعظم مصيبتاه !! ، هذا والهاشمي يتقطع ضحكا فقال لهما : يا زانيتان إن لم تعلماني به أنا اعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك وقال :ويلك ما هذا ؟.

قال المضحك هذه الأبيات:

تكنفني المـــلاح وأضـــجـــروني عـــلى مـــا بي بـــنـــيـــات الـــزواني

فلما قـــل عـــن ذلـــك اصطباري قـــذفـــت بـــه عـــلى وجـــه الـــغـــواني

قال : فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالًا ومضى إلى سبيله [1] .

(١) المستطرف في كل فن مستطرف (٢/ ٣٤٢) .

١٧

مرحبًا بك يا سيد العرب

غضب المعتصم مرَّة على القائد خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني الفارسي العربي البطل ، ابن الفارس العربي الذي قال الشاعر في رثاء أبيه :

أحامي الملك والإسلام أودى ؟ فما الأرض ويحك لا تميد ؟
تأمل هل ترى الإسلام مادت دعائمة وهل شاب الوليد ؟

وتشفع أحمد بن أبي دؤاد القاضي في خالد بن يزيد فلم يشفعه المعتصم ، وكان من عادة ابن أبي داؤد أن يجلس بجوار الخليفة ، فجاء بعد ذلك وجلس دون مجلسه المعتاد .

فقال له المعتصم : مجلسك يا أبا محمد .

قال : ما ينبغي أن أجلس فيه ، لأن الناس يظنون إن جلست فيه أن لي من أمير المؤمنين ما أشفع به فأشفع .

قال المعتصم : عُد إلى موضعك .

قال : مُشفعًا أو غير مُشفَّع ؟.

قال: بل مُشفعًا ، وعفا عن خالد .

قال : إن الناس لا يعلمون أنك عفوت عنه حتى تخلع عليه ، فأمر بخلع

عليه، قال أحمد : يا أمير المؤمنين ! إن له رواتب ستة أشهر ، فَمُرَّ له بها تقم مقام الجائزة ، فأمر له بها .

فخرج والخلع عليه ، والمال بين يديه ، فناداه رجل مرحبًا بك يا سيد العرب، فقال له : اسكت ويحك ! إنما سيد العرب ابن أبي دؤاد[1] .

(١) رجال من التاريخ (١٣١/ ١٣٢).

١٨

أنا امرأة فقدت الولد والوالد

قال الأصمعي : وقفت أعرابية من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - فقالت : إني أتيت من أرض شاسعة تهبطني هابطة ، وترفعني رافعة ... في بواد برين لحمي (أي هزلنه) وهضن عظمي (أي كسرنه)، وتركنني والهة قد ضاق بي البلد بعد الأهل والولد ، وكثرة من العدد، لا قرابة تؤويني ، ولا عشيرة تحميني ، فسألت أحياء العرب : من المرتجى سيبه (أي المرتجى عطاءه) ، والمأمون غيبه ... الكثير نائله ... المكفي سائله ... فدللت عليك ، وأنا امرأة من هوازن ، فقدت الولد والوالد ، فاصنع في أمري واحد من ثلاث :

* إما أن تُحسن صفدي (أي عطائي) .
* وإما تقيم أودي (أي تقيم إعوجاجي) .
* وإما أن تردني إلى بلدي .

قال : بل أجمعهن لكِ ، ففعل ذلك بها أجمع [١].

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (٣/ ٤٣٣) .

١٩

قتلت ابن عمك وقللت عددك

عن الأحنف بن قيس قال : كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم كما نتعلم الفقه .

فبينما نحن ذات يوم عنده ، وهو جالس بفنائه فحتب بكسائه ، إذا جماعة قد أقبلت ، وفيهم مقتول ومكتوف ، فقالوا : يا أبا عليٍّ ... هذا ابنك قتل ابن أخيك!! ، فما حل حبوته ، ولا تكلم حتى قضى تسبيحه ... ثم أقبل على ابن أخيه فقال : قتلت ابن عمك وقللت عددك ، لا يبعد الله غيرك !! .

ثم أقبل على ابن له آخر قال : قم يا بني فاحلل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أم أخيك مائة من الإبل دية ابنها ، فإنها غريبة فينا [١].

---

(١) العفو والاعتذار ، ص (٥٤٤) ، والفرج بعد الشدة والضيقة ، للحازمي ج ٥ .

٢٠

موقف إيماني

كان عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول – رضي الله عنه – رجلاً صالحًا من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – فبلغه أن والده قال هذا الكلام عن رسول الله وأصحابه ، فوقف في وجه والده عند دخوله المدينة وقال له : أأنت الذي تقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، تريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟، فوالله لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو الأعز ، وأنت الأذل .

فحمية العقيدة طغت على حمية الولادة والنسب ، ثم قال : والله لا تدخل المدينة إلا وأنا قاتلك ، أو يأذن لك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

عند ذلك أمره النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يتركه ، ودخل إلى المدينة ، وفي رواية ، أنه جاء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ! إنه قد بلغني أن والدي قال : كيت وكيت ، فإن أرت قتله فدعني أنا أقتله فإني أخشى أن أرى قاتل والدي فلا أصبر (١) .

(١) كنوز السيرة ، عثمان بن محمد الخميس ، ص (١٩٥) .

٢١

توبة مالك بن دينار

ورُوي عن مالك بن دينار ، أنه سئل عن سبب توبته ، فقال : « كنت شرطيًا، وكنت منهمكا على شرب الخمر ، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ، ووقعت مني أحسن موقع ، فولدت لي بنتا ، فشغفت بها ، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا ، وألفتني وألفتها .

قال : فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إليَّ ، وجاذبتني عليه، وهرقته من ثوبي ، فلما تم لها سنتان ماتت ، فأكمدني حزنها ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان ، وكانت ليلة الجمعة بت ثملًا من الخمر ، ولم أصل فيها عشاء الآخرة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ، ونفخ في الصور، وبُعثرت القبور ، وحشر الخلائق ، وأنا معهم ، فسمعت حسا من ورائي فالتفت ، فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون ، أسود ، أزرق قد فتح فاه مسرعا نحوي، فمررت بين يديه هاربا فزعًا مرعوبًا ، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب ، طيب الرائحة ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، فقلت : أيها الشيخ، أجرني من هذا التنين أجارك الله ، فبكى الشيخ ، وقال لي : أنا ضعيف ، وهذا أقوى مني، وما أقدر عليه ، ولكن مُرَّ وأسرع ، فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هاربًا على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران ، فنظرت إلى هولها ، وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح : ارجع فلست من أهلها ، فاطمأننت إلى قوله ، ورجعت ورجع التنين في طلبي ، فأتيت الشيخ ، فقلت : يا شيخ ، سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل ، فبكى الشيخ ، وقال : أنا ضعيف ، ولكن سر إلى

هذا الجبل ، فإن فيه ودائع المسلمين ، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك ، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة ، وفيه كوى مخرمة ، وستور معلقة، على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر ، مفصلة باليواقيت ، مكوكبة بالدر على كل مصراع ستر من الحرير ، فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربا ، والتنين من ورائي حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة ، ارفعوا الستور ، وافتحوا المصاريع وأشرفوا ، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه ، فإذا الستور قد رفعت ، والمصاريع قد فتحت ، فأشرف علي من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار ، وقرب التنين مني ، فتحيرت في أمري ، فصاح بعض الأطفال : ويحكم أشرفوا كلكم ، فقد قرب منه عدوه ، فأشرفوا فوجًا بعد فوج ، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم ، فلما رأتني بكت ، وقالت : أبي والله ، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى ، فتعلقت بها ، ومدت يدها اليمنى إلى التنين، فولى هاربا ، ثم أجلستني، وقعدت في حجري ، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت : يا أبت ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦] ، فبكيتُ ، وقلت : يا بنية ، وأنتم تعرفون القرآن؟، فقالت : يا أبت ، نحن أعرف به منكم ، قلت : فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني؟،قالت : ذلك عملك السوء قويته ، فأراد أن يغرقك في نار جهنم .

قلت : فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي ؟، قالت : يا أبت، ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء،قلت : يا بنية ، وما تصنعون في هذا الجبل ؟ ، قالت : نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا ، فنشفع لكم

قال مالك : فانتبهت فزعًا ، وأصبحت فأرقت المسكر ، وكسرت الآنية ، وتبت إلى الله عز وجل ، وهذا كان سبب توبتي » [١].

---

(١) مختصر كتاب التوابين لابن قدامة (ص ٢٠٩ – ٢١٤) .

٢٢

مخدَّتي أعظم من مخدة الخليفة

توسد سفيان الثوري كومة من التراب في مزدلفة وهو حاجّ ، فقال له الناس: أفي مثل هذا الموطن تتوسد التراب وأنت مُحدَّث الدنيا ؟، قال : لمخدتي هذه أعظم من مخدة أبي جعفر المنصور الخليفة [١].

٢٣

كرب ثم فرج

ذكر صاحب حلية الأولياء عن مسعر ... أن رجلاً ركب البحر فكسر فوقع في جزيرة ، فمكث ثلاثة أيام لم ير أحدًا ولم يأكل ولم يشرب ، فتمثل وقال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

فأجابه مجيب لا يراه :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

فنظر فإذا سفينة قد أقبلت ... فلوح إليهم .. فحملوه فأصاب خيرًا كثيرًا .

(١) ذكرها الشيخ عائض القرني في كتابه (لا تحزن) ص ٢٠٩ ، طبعة دار الصحابة الإمارات .

٢٤

الفقر خير من الأسر

يقول إبراهيم بن عبد الله الحازمي: حُكي أن امرأة حسنة الوجه كثيرة المال تأخرت في دارها هي ووصيفاتها وجواريها عن الهروب حين الوقعه بالأسكندريه .. فدخلت الإفرنج إليها بأيديهم السيوف المسلوله .. فلما رأتهم نهضت قائمة ، وصارت من الفزع كالمهبولة .. فنغزهاأحدهم بذبابة سيفه نغزة خفيفة ، وقال لها : أين المال؟ .

فازداد رعبهاوقالت : المال في هذه الصناديق التي هي داخل هذا البيت وأشارت الى بيت بالمجلس التي هي به وصارت ترتعد من الخوف .

فقال لها أحدهم : لا تخافي فأنت تكوني عندي، وفي مالي وخيري ترتعي، ففهمت عنه أنه أحبها ويريدها لنفسه ، فمالت إليه وقالت له بكلام خفي : أريد أن أدخل بيت الخلاء ، ... ورقت لهم القول .

ففهم عنها أنها أرادته،وأنه حصل لها من الرعب ما احتاجت معه إلى ذلك... وأشار إليها أن تمضي لقضاء حاجتها... فمضت واشتغلو بنهب الصناديق ، وخرجت المرأة من باب دارها، ودخلت مخزنًا غلسًا مملواءً تبنًا بزقاق دارها فحفرت في التبن حفرة واندفنت بها فطلبتها الافرنج بعد نهبهم لدارها فلم يجدوها ، فاشتغلوا بحمل النهب ومضوا ... فسلمت المرأه من الأسر بحيلتها تلك وكذلك وصيفاتها وجواريها سلمن من الأسر بصعودهن سطح الدار.

فقالت المرأه عند ذلك : سلامة الدين والعرض خير من المال الذي لم يدخر عند ذوي المروءات إلا لغرض مثل هذا ، لأن الفقر خير من الأسر والافتتان

بتغيير الدين بالقهر.

فرضيت هذه المرأة بسلامة دينها وصيانة عرضها ، ولا تكون بعد الديانة عند كافر في حانة ، ولسان حالها ينشد ويقول :

إني لحـــر المـــــال ممـتـهـن ... ولحـــر عـــرضي غـــير ممتهن

ثم قال لسان حالها أيضًا :

إن الغني هـو الغني بنفسه ... ولـو أنـه عـارى المناكب حافي
وسلامة الدين القويم من الأذي ... خـير مـن الكفر السقيم الجـافي
ما كل ما فـوق البسيطة كافيًا ... فـإذا قنعت فبعض الـشيء كافي

ثم انها رفعت قصتها إلى عالم سريرتها ولسان حالها يقول :

الـــصـــبر يــعــقــب راحـــة ... والـــفـــم يـعـقــبـه الجــزع
إصـــبر وإلا فــاصـطـبر ... فــا الــصــبر أنــفــع مــا ينفع
كـــم مـــن مـضـيــق معسر ... بــالــصــبر وســـع فـاتـسـع
والـــصـــبر عـــدة كـــل ذي ... عــقـــل إذا وقـــع الــفــزع
كـــم عـــاد بــالـصـبر أمــرء ... عــنــد الــشــدائــد فــانــدفــع
الـــصـــبر زيــــن لــلــفــتــى ... ويــشــنــيــه ذل الــطــمــع (١)

(١) كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية ، لمحمد قاسم النويري المتوفى بعد سنة (٧٧٥هـ) .

٢٥

صبر .. فنال

يقول الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء :

قال الحافظ ابن طاهر المقدسي – رحمه الله – : أقمت بتِّنيس مدة على أبي محمد (يقصد أقرأ العلم على أبي محمد) بن الحداد ونظرائه ، فضاق بي الأمر، ولم يبق معي غير درهم، وكنت في ذلك أحتاج إلى خبز، وأحتاج إلى كاغد (أي ورق للكتابة) ... فترددت في صرفه في الخبز أو الكاغد ، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ... فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي اليوم كاغد لم يمكنِّي أن أكتب من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي، وخرجت لأشتري الخبز، فبلعته، ووقع علي الضحك.

فلقيني صديق وأنا أضحك، فقال لي: ما أضحكك؟ فقلت: خير.

فألح عليَّ وأبيت أن أخبره (أي تعفف) ، فحلف بالطلاق لتصدقني لم تضحك؟، فأخبرته ... وأخذ بيدي، وأدخلني منزله ، وتكلَّف أطعمه ، فلما خرجنا لصلاة الظهر ، فاجتمع به بعض وكلاء عامل تنيس (العامل أي الأمير والوالي) ابن قادوس ، فسأله عني، فقال: هو هذا.

فقال: إن صاحبي منذ شهر أمرني أن أوصل إليه في كل يوم عشرة دراهم، قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه.

قال: فأخذ منه ثلاثمائة درهم، وجاء بها وقال: قد سهَّل الله رزقاً لم يكن في الحساب. وأخبرني بالقصة.

وكان بعد ذلك يصلني ذلك القدر، إلى أن خرجت من البلد إلى الشام [1].

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٦٧).

٢٦

قصة جريج العابد

هذه القصة من أنباء من قد سبق ، قصَّها علينا النبي -ﷺ- وهو الوحي الذي يوحى لا ينطق عن الهوى ، وهي قصة جريج الراهب التي حدثنا بها النبي -ﷺ- فيما جاء في الحديث الصحيح ، وهذه القصة رواها الإمام البخاري - رحمه الله - والإمام ومسلم - رحمه الله - وكذلك رواها الإمام أحمد - رحمه الله - .

ورواية الإمام مسلم - رحمه الله تعالى - يقول فيها النبي -ﷺ- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان جريج رجلاً عابدًا ، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمُّه وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ، فقال : يا رب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ، فقال : يا رب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ، فقال : أي رب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الموسات .

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته ، وكانت امرأة بغي يُتَمَثَّلُ بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأَفْتِنَنَّه لكم ، قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فلما

ولدت قالت : هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ، قالوا : زنيت بهذه البغي فولدت منك ، فقال : أين الصبي ، فجاءوا به ، فقال : دعوني حتى أصلي ، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبي فطَعَنَ في بطنه ، وقال : يا غلام ، من أبوك ؟ قال : فلان الراعي ، قال: فأقبلوا على جريج يقَبِّلونه ويتمسحون به، وقالوا : نبني لك صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا (١) .

نسيم عابدة

أورد ابن مقصد العبدلي في نادرة معالم العلم :

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجل موسر وكانت جميلة وكانت تخطب فتأبى ، فبلغ الرجل أنها تريد الحج فاشترى ثلاثمائة بعير ونادى من أراد الحج فليكتر من فلان فاكترت منه المرأة فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال : إما أن تزوجيني نفسك وإما غير ذلك فقالت: ويحك اتق الله، فقال : ما هو إلا ما تسمعين والله ما أنا بجمَّال ولا خرجت إلا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقي في الرجال عين لم تنم فقال لا ناموا كلهم قالت أفنامت عين رب العالمين ثم شهقت شهقة خرت ميتة ، وخر الرجل مغشيًا عليه فلما أفاق قال : ويحي قتلت نفسًا ولم أبلغ شهوتي (٢).

(١) من القصص النبوي ، عظات وعبر ، لمحمد صالح المنجد .
(٢) نادرة معالم العلم ، جـ ٤ ص (٣٥٧) .

٢٧

اللهم احشرني من حواصل الطيور

يروي أبو قُدامة الشَّامي، أحد قادة الفتح الإسلامي قائلاً :

كنت أميرًا على جيش المسلمين في إحدى الغزوات ، ولما بدأ القتال رأيت غلامًا يمسك بسيفه ويحارب الأعداء مترجلاً (يعني يتحرك على رجليه)، فتقدمت منه وقلت له: أنت غلام ولا آمن عليك أن تجول الخيل فتطأك بأرجلها ، فعُد إلى بيتك ولا تقاتل فإنك صغير ، فنظر إليَّ قال: أتأمرني بالرّجوع وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦] .

يا أبا قدامة ! أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت: أهذا وقت قرض؟!، فما زال يُلحُّ عليَّ حتّى قلتُ له بشرط : إن منَّ الله عليكَ بالشَّهادة أكون في شفاعتك يوم القيامة ! ، قال: نعم.

فأعطيته ثلاثة أسهم، فوضع سهماً في قوسه وقال: السَّلام عليك يا أبا قدامة، ورمى به فقتل روميًّا، ثمّ رمى بالآخر وقال: السَّلام عليك يا أبا قُدامة، فقتل روميًّا ، ثمّ رمى بالآخر وقال: السَّلام عليك سلام مودِّع، فجاءه سهمٌ غَربِ (لا يدري من رمايه) فوقع بين عينيه، فوقع على الأرض ، فتقدَّمت

إليه وقلتُ: لا تنسها (يعني الشفاعة) ، فقال: نعم، ولكن لي إليك حاجة: إذا دخلت المدينة فأتِ والدتي ، وأخبرها عن حال .

يقول أبو قدامة : فحفرتُ له ودَفَنته (بعد الانتهاء من المعركة) ، فلمّا هَمَمنا بالانصراف عن قبره قَذَفَتْهُ الأرض، فألقته على ظهرها!!فقال أصحابي: لعلّه خرج بغير إذن أمّه، فقلتُ لهم : إنّ الأرض لتقبل من هو شرٌّ من هذا.

فقمتُ وصلَّيت ركعتين ودعوت الله -عزّ وجلّ- ، فسمعت صوتاً يقول: يا أبا قُدامة، اترك وليّ الله ، فما برحت حتّى نَزَلَت عليه طيور فأكلت جشته وتركت عظمه ، فدفنت العظم وعدت إلى المدينة ذهبتُ إلى دار والدته، فلمّا قرعتُ الباب خرجت أمّه إليَّ فقالت: أمعزّياً أم مهنّئاً؟! ، فقلتُ: ما معنى هذا الكلام ؟ ، فقالت: إن كان مات بغير شهادة فعزّني، وإن كان استُشهد فهنّئني.

فقلتُ: لا، بل مات شهيداً - إن شاء الله - .

فقالت: له علامة، هل رأيْتَها؟.

قلتُ: نعم، لمْ تقبله الأرض. ونزلت الطُّيور فدفنت لحمه (يعني في بطنها)، وتركت عِظامَهُ فدفَنْتُها.

فقالت: الحمد لله. ، وقالت: إنّه كان إذا جنّ عليه الليل ناجى مولاه، وقال في مناجاته: احشرني من حواصل الطُّيور ، فقد استجاب الله دعاءه [1].

(١) هذا الخبر أورده الإمام ابن الجوزي في صفة الصفوة .

٢٨

خرج من القتل بأعجوبة وذكاء

قال ابن الكلبي : لما فتح عمرو بن العاص « قيسارية » سار حتى نزل على غزة فبعث إليه علجها ـ أميرها ـ أن أرسل إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو ، فقال : ما لهذا العلج أحد غيري ! فقام حتى دخل على العلج فكلمه ، فسمع منه كلاماً لم يسمع مثله قط ، فقال له العلج : حدثني هل من أصحابك أحدٌ مثلك ؟ .

قال : لا تسأل عن هواني عندهم إذا بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، فلا يدرون ما تصنع بي ، قال : فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب : إذا مَرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه ، فمر برجل من النصارى من غَسّان فعرفه، فقال يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج ، فرجع ، فقال له االأمير: ما ردك إلينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك ليسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد ، قال : صدقت ، أعجل بهم ، وبعث إلى البواب خلة سبيله ، فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أمن ، قال: لا عدت لمثلها أبداً ، فلما صالحه عمرو ، ودخل عليه العلج فقال له : أنت هو.. قال على ما كان من غدرك [١].

---

(١) الأذكياء لابن الجوزي (ص٣٩) .

٢٩

ضحى بولده وفاء بعهده

الوفاء خُلق كريم ، وأدب نبيل ، وصفة من صفات الأنبياء ، وقد أمرنا الله تعالى بها قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة : ١] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء:٣٤] .

وكذلك مما ظهرت روايته بالشام والعراق ، وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق ، حديث السموؤل بن عاديا ، وتلخيص معناه :

أن امرأ القيس الكندي، لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السموؤل دروعًا وسلاحًا، وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموؤل، فقال السموؤل: لا أدفعها إلا لمستحقها. وأبى أن يدفع إليه منها شيئًا، فعاوده فأبى، وقال: لا أغدر بذمتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء الواجب علي.

فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموؤل في حصنه، وامتنع به. فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموؤل خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرًا، ثم طاف حول الحصن وصاح السموؤل . فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلمت إليَّ الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك، رحلت عنك، وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختر أيهما شئت.

فقال له السمؤل: ما كنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا، واحتسب السمؤل ذبح ولده وصبر، محافظة على وفائه .

فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه .

اشــدد يــدك بمن بلوت وفــاءه إن الوفاء من الرجال عزيز (١)

---

(١)نادرة معالم العلم لابن مقصد العبدلي ، بتصرف ، جـ ٤ ،ص (٤١٩/ ٤٢٠) .

٣٠

رأيت أحمد بن طولون في المنام

قال بعض السادة الصالحين : رأيت أحمد بن طولون بعد موته في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟، قال : لما قبضت روحي ساقني سائق عنيف ، فمررت على جهنم ، وقد فتحت أبوابها وارتفع دخانها ، فخفت خوفًا شديدًا، وأيقنت بالهلاك ، وإذا بجارية جميلة طيبة الرائحة قد أتت إليه ، وقالت : يا أحمد لا تخف فقد وهبت لي ، ثم وقفت بيني وبين النار فانكف عني لهيبها ، فقلت لها : من أنتِ ؟.

فقالت : صَدَقَتُكَ التي كنت تخفيها يمينًا وشمالاً ، ثم نادي منادٍ من تحت العرش : ادخلوا الجنة من باب المغفرة ، فأُدخلت الجنة ، وصرت إلى ما ترى[1] .

(١) الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح (ص ٤٣) لشمس الدين محمد بن محمد بن علي الشهير بابن الجزري (٧٥١-٨٣٣هـ) نادرة المعالم لابن مقصد العبدلي .

٣١

وتلك الأيام نداولها بين الناس

قال ابن خلكان : حكى لي الوجيه أبو عبد الله محمد بن علي ابن أبي طالب المعروف بابن سويد التاجر التكريتي قال : كان الشيخ محي الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ المشهور قد توجه رسولاً بن بغداد إلى الملك العادل بن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب سلطان مصر في ذلك الوقت ، وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محبوسًا في قلعة الكرك يومئذ .

قال الوجيه : فلما عاد محي الدين راجعًا إلى بغداد وقدم دمشق كنت لها ، فدخلت عليه والشيخ أصيل أبو الفضل عباس ابن عثمان ابن نبهان الإربلي، وكان رئيس التجار في عصره وجلسنا نتحدث معه فقال : قد حلفت الملك الناصر داود صاحب الكرك أن لا يخرج الملك الصالح من الحبس إلا بأمر أخيه الملك العادل .

قال : فقال له الأصيل : يا مولانا ، هذا بأمر الديوان العزيز ؟ .

فقال محي الدين : وهل هذا يحتاج إلى إذن ؟.

هذا اقتضة المصلحة ، ولكن أنت تاريخ يا أصيل .

فقال : يعني مولانا أني قد كبرت وما أدري ما أقول ، وأنا أحكي لمولانا حكاية في هذا المعنى أعرفها من غرائب الحكايات ، قال : هات .

فقال : كان ابن رئيس الرؤساء ناظر واسط يحمل في كل شهر حمل وسط وهو ثلاثون ألف دينار لا يمكن أن يتأخر يومًا واحدًا عن العادة ، فتعذر في بعض الأشهر كمال الحمل ... فضاق صدره لذلك وذكر لنوابه .

فقالوا له : يا مولانا هذا بن زيادة عليه من الحقوق آضعاف ذلك ... ومتى حاسبته قام بما يتم الحمل وزيادة .

فاستدعاه وقال له : لم لا تؤدي كما يؤدي الناس ؟ .

فقال : أنا معي خط الإمام المستنجد بالمسامحة .

قال : هل معك خط مولانا الإمام الناصر ؟ .

قال : لا .

قال : قم واحمل ما يجب عليك .

قال : ما التفت إلى أحد ولا أحمل شيئًا ، ونهض من المجلس .

فقال النواب لابن رئيس الرؤساء : أنت صاحب الوسادتين ، وناظر النظار ، وما على يدك يد ، ومن هو هذا حتى يقابلك بمثل هذا القول ؟، ولو كبست داره وأخذت ما فيها ما قال لك أحد شيئًا وحملوه عليه حتى ركب بنفسه وأجناده ، وكان ابن زبادة يسكن قبالة واسط ، وقدموا إلى ابن ئيس الرؤساء السفن حتى يعبر إليه ، وإذا بزبرب قد قدم من بغداد ، فقال : ما قدم هذا إلا في مهم ... ننظر ما هو ثم نعود إلى ما نحن بسببه ، فلما دنا من الزبرب فإذا فيه خدم من خدام الخليفة ... فصاحوا به : الأرض الأرض ، فقبل الأرض وناولوه مطالعة ، وفيها : قد بعثنا خلعة وداوة لابن زيادة ، فتحمل الخلعة على رأسك والدواة على صدرك ، وتمشي راجلاً إليه وتلبسه الخلعة ، وتجهزه إلينا وزيرًا .

فحمل الخلعة على رأسه والدواة على صدره ، ومشى إليه راجلاً ، فلما رأه ابن زبادة أنشد ابن رئيس الرؤساء:

إذا المـرء حيٌ فهو يُرجى ويتقى وما يعلم الإنسان ما في المغيب

وأخذ يعتذر إليه .

فقال له ابن زبادة : لا تثريب عليكم اليوم ، وركب في الزبزب إلى بغداد ، وما علموا أن أحدًا أرسلت إليه الوزارة غيره ، فلما وصل إلى بغداد كان أول ما نظر فيه عزل ابن رئيس الرؤساء عن نظر واسط قال : هذا ما يصلح لهذا المنصب .

ثم قال الأصيل : ولا يأمن مولانا أن يخرج الملك الصالح ، ويملك ويعود إليه رسولاً ويقع وجهك في وجهه وتستحي منه .

فأنشده محي الدين قوله :

وحتى يـؤوب القارظان كلاهما وينشر في الموتى كليبٌ لوائل

فما كان إلا مديدة ... حتى خرج الملك الصالح من حبس الكرك ، وملك مصر وكان ما كان [١].

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٢٤٨) .

٣٢

وإذا أقرضتُك من أين تُعطيني ؟

قال أحمد بن يوسف الكاتب :

حدثتني أم آسية - قابلة أولاد خُمَارويه بن طولون ، وكان لها دين ومذهب جميل ، ومحل لطيفُ من خُمارويه ، وقد تذاكرنا لطف الله - عز وجل - في أرزاق عباده ، وحُسن الدفاع عنهم ، أنه تزوَّجها وأختها أخَوَان ، فأقبلت حال زوج أختها وأدبرت حال زوجها ، قالت : وتُوفِّيَ زوجها بأسوأَ حالة ، وخلَّف لها بناتٍ ، وتعَّذر عليها تجهيزه من اختِلاله ، وتوفى زوج أختها ، وقد خلَّف من العين والمساكن والأواني لِوَلد أختها ، قالت : فكنت أجاهد في مؤنة ولدي وإذا وقف أمري ، فصرت إلى أختي فقلت لها : أقرضيني كذا وكذا ، استحياءً من أن أقول لها : هبي لي ... ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه ، اشتهوا عليَّ صبياني حلوى في العيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضيني دينارًا أعمل به للصبيان حلوى في العيد ، فقالت: يا أختي! تغيظيني بقولك : أقرضيني، وإذا اقرضتُك من أين تُعطيني ؟، أمن غَلَّة دُورِك أو بُستانكِ ؟ ، (أي من الدخل الذي يغله العقار - ساخرًا منها -) .

لو قلت : هَبي لي كان أحسن ، فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذي لا يُحتسب ، وجُودِه الذي يأتي من حيث لا يُرتَقب ! ، فتضاحكت وقالت : يا أختي ! هذا والله من المُنى ، والمُنى بضائعُ النَّوكي ، (جمع أنوك : وهو الأحمق الذي لا عقل له) .

فانصرفت عنها أجرُّ رجلي إلى منزلي ، وكان في جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه ، فلما بلغت حارتنا قال لي : في جوارنا امرأة تطلق قد أوجعت قلبي (أي أدركها المخاض ووجع الولادة) ، ادخلي إليها فليس لها قابلة (القابلة هي التي تتلقى الولد من بطن أمه) ، - المولدة يعني - قالت أم آسية : ووالله ما عانيت ممخوضة قط(أي ما شاهدت امرأة إذا ضربها الطلق ووجع الولادة) ، فدخلت عليها فمسحت جوفها ، وأجلستها كما كان القوابل يُجلسنني في طلقي ، فولدت في ساعتها .

فلما أمسك صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها فقلت : قد ولدت ! ، فعجب من سُرعة أمرها ، وظن أن هذا شيئًا قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولطف في مهنة ، فمضى إلى ستَّة بنت اليتيم - وكانت مقربًا بأول ولد حُملَ لأبي الجيش، وقد عُرِضَ عليها قوابلُ استثقلتهن ، فقال : في جوارنا قابلةً أحضرناها لمرأة في حارَتنا تُطلق ، فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها ! ، ووصفني بما لا يُوجد في قدرة أحد إلا الله عز وجل ! .

فقالت للخادم : إذا كان غدًا فجئني بها ، فأتى الغلام ودعاني إلى مولاته، فأجبت بانشراح صدر وثقة بالله تعالى ، فاستخفَّت رُوحي وقالت : إلى التمام بتقدير الله تبارك وتعالى ، ثم شكت مغصًا (مغس) [1]تجده المُقرب ، فأدخلت يدي في ثيابتها ومسحت جوفها وعجحت إلى الله تعالى في سري بتوفيقي ، وكنت أدعو - ومن حضر من أهلها توهم أني أرقى - فسكن ما وجدته .

ودخل إليها خُمارويه وقال : ما وجدتي؟، فقالت: مغسًا في جوفي ، فوضعت قبالة أردُتها يدها عليه ، فزال ما أجده ! ، وأخرجتني إليه - وكان قريبًا من حُرِمِه- فقال لي : أرجو أن يُخَلِّصها الله - عز وجل - ببركتك .

---

(١) المغس والمغص : تقطيع يأخذ من أسفل البطن والمعي .

قالت أم آسية : ودخلنا في العشر الأواخر من شهر رمضان ، وقد تمسكت من الإخلاص لله - عز وجل - بما لا ي صلُ إليه من ساح في الجبال ، خوفًا من شماتة أختي بي ، فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتى مخضت ، فأجلستها على كرسي الولادة - وكان مقدار طلقهاه ساعتين ، فولدت ابنًا أسهل ولادة ، وأبو الجيش يقوم ويقعد ، ويذهب ويجئ .

فلما ولدت - وكانت تتوقع من الولادة أمرًا عظيمًا - فلما ألقته قالت لي : هذا الطلق ؟، قلت : نعم ! فقبّلت - يعلم الله - عيني من الفرح ، وصاح خُمارويه: أخبريني يا مباركة بخبرها ، فقلت : (والله) إنها في عافية ، وقد ولدت غلامًا سويَّ الخلق بحمد الله ، فوجه إليَّ بألف دينار ، وألح أبو الجيش في النظر في النَّظر إليها لفَرط اشفاقه عليها ، فاستوقفته إلى أن نقلت حوائج الولادة وقلت لها : يا سيدتي ! اضحكي في وجهه كما تريه (أي كلما ترينه) ، فلما دخل إليها ضحكت في وجهه ، فتقدم بصدقة بمال كثير عنها وعن ولده .

وقالت لي أُمُّ آسية : لما كان يوم الأسبوع - ووقع قبل العيد بيوم واحدٍ - أمرت لي بخمس مائة دينار ، وحصل لي من أتباعها ألف دينار ، فحصل لي ألفان وخمسٍ مائة دينار ، وخلعت عليَّ وسائر حَشَمِها أكثر من ثلاثين خِلعةً وحُمِل إليَّ مما أُعِد للعيد ثلاث موائد خاصة ،وانصرفت إلى منزلي ، فأرسلت إلى أختي مائدة ، ووافتني مهنَّئة ، وقد تقاصر طولها ، فأريتها ما حصل لي من المال والخلع والطيب ، وقلت لها : يا أختي ! أنكرتي عليَّ قولي : أقرضيني ، ومن هذا كنت أقضيك ، فلا تستصغري من كان الله مادَّته ، وعليه قَدَارُ ثِقَتِه وتعويضه .

واكتسبت المرأة بمحلها من أبي الجيش مالاً كثيرًا ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة [1] .

---

(١) المكافأة وحُسن العقبى - أحمد الكاتب .

٣٣

أين الذين يؤثرون على أنفسهم

يقول الدكتور ناصر ابن مسفر الزهراني في كتابه :

في أيام الحج وصل الشيخ محمد صالح بن عثيمين -رحمه الله- إلى مزدلفة فوضع فراشه وذهب ليتهيأ للصلاة ، فجاء أحد الحجاج فأخذ الفراش وجلس عليه هو ومجموعته ، فجاء الشيخ ولم يجد فراشه ، فقال لأحد مرافقه (اذهب هات فراشًا) ، فذهب الأخ علي السهلي إلى الرجل وقال له : (كيف تأخذ فراشنا ؟، أعِده لنا ، فقال الرجل : يا آخي أين الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه ؟!! .

فعاد المرسل إلى الشيخ يخبره بكلام الرجل ، فقال الشيخ : ليش ما قلت له: قد ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافا ؟!! .

٣٤

بين عائشة وفاطمة - رضي الله عنهما -

فاطمة - رضي الله عنها - ليس لها أي إشكال مع عائشة - رضي الله عنها - ، بل إن فاطمة كانت تُسر أحيانًا ببعض ما تريده لعائشة - رضي الله عنها -، مثال ذلك : أن عليًّا - رضي الله عنه - قال يومًا لفاطمة : إن أباك قد جاءه سبي ، أي حصلت معركة بينه وبين الكفار وسبي منهم سبيًا .

قال : فاذهبي فالتمس منها خادمًا ، فمضت فاطمة - رضي الله عنها - وطرقت الباب ، ولم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - موجودًا ، إنما عائشة - رضي الله عنها -، فسألتها عائشة ماذا تريدين ؟ .

قالت : والله يا عائشة أنا أرغب وأريد من أبي أن يساعدني بخادم من السبي، فأبانت لها عما في نفسها ، ولو كان في نفس فاطمة شيء من عائشة - رضي الله عنها - لما تكلمت معها وقالت لها هذا الموضوع الخاص .

وهذا دليل على أن العلاقة بينهما كانت علاقة رائعة ، وكذلك عائشة كانت تكرم فاطمة رضي الله عنها - أيما إكرام حتى بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتزورها في مرضها حتى في الحديث الصحيح الذي روته عائشة - رضي الله عنها - تقول : « كان النبي - صلى الله عليه وسلم - جالسًا معنا قبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها مشية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي نفس طريقة مشي النبي - صلى الله عليه وسلم -» .

أحيانًا بعض الناس يتشابهون بالصوت بالشكل أحيانًا بالطباع بالحركات .

تقول : فجاءت جلست بجانب النبي -ﷺ - تقول فأَسَرَّ إليها حديثًا فبكت، وأسرَّ إليها بحديث آخر فضحكت ، قالت : عائشة -رضي الله عنها- ما رأيت عجبًا كاليوم بكاء ثم ضحك ، تقول : فلما قام النبي - ﷺ- قالت لها : يا فاطمة ! ماذا أسر لك النبي - ﷺ- ؟ . رضي الله عنها

قالت رضي الله عنها : والله ما كنت لا أفشي سر رسول الله - ﷺ- ، فلم تقل عائشة: يا رسول الله ، ماذا قلت لها ؟.

تقول رضي الله عنها : فلما مات النبي -ﷺ - سألت فاطمة مرة أخرى ، قلت : يا فاطمة بماذا أسرَّ إليك النبي - ﷺ-؟.

فقالت رضي الله عنها : إنه قد قال لي : إن جبريل كان يعارضني القرآن - يعني يراجع معي القرآن- في كل سنة مرة وأنه هذه السنة عارض القرآن معي مرتين وما أراه إلا حضور أجلي .

تقول رضي الله عنها : فبكيت ، تقول : ثم أسرَّ إليَّ أخرى وقال : أما يُرضيك أن تكوني سيدة نساء الجنة ، أو قال لها : إنك أسرع أهلي لحوقًا بي ، فضحكت ، تعني : أنا سأتبع رسول الله - ﷺ- وسأكون سيدة نساء الجنة [١].

---

(١) قصص العريفي الواقعية ، ط دار البشير الإمارات ، ص (٢٧٣-٢٧٤) .

٣٥

ثبات وصبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله

ذكر الحافظ أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل محنة خلق القرآن ، وكيف كان ثبات الإمام أحمد في هذه المحنة ، فقال : ثم امتحن القوم فوجه بمن امتنع إلى الحبس ، فأجاب القوم جميعًا غير أربعة أبي ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريري ، والحسن بن حماد سجادة ، ثم أجاب عبيد الله بن عمر ، والحسن بن حماد - تحت ضغط التعذيب - وبقى أبي ومحمد بن نوح في الحبس فمكثنا أيامًا في الحبس ثم ورد الكتاب من طرسوس بحملها ، فحمل أبي ومحمد بن نوع مُقيدين زميلين وأُخرجنا من بغداد ، فسرنا معهم إلى الأنبار .

فسأل أبو بكر الأحوال أبي فقال : يا أبا عبد الله إني عرضت على السيف تجيب؟، فقال : لا .

قال أبي : فانطلق بنا حتى دخلنا الرَّحُبَة ، فلما رحلنا منها وذلك في جوف الليل وخرجنا من الرَّحبَة عرض لنا رجل فقال : أيُّكم أحمد بن حنبل ؟، فقيل له: هذا ، فسلَّم على أبي ثم قال : يا هذا ما عليك أن تُقتل ها هنا وتدخل الجنة ، ثم سلَّم وانصرف ، فقلت : من هذا ؟، فقيل : هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر في البادية يقال له : جابر بن عامر .

فلما صرنا إلى أذَنة ورحلنا منها ذلك في جوف الليل فُتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل ، فقال البشرى : قد مات الرجل (يعني

المأمون) ، قال : أبي وكنت أدعو الله أن لا أراه .

قال أبو الفضل صالح : فصار أبي ومحمد بن نوح إلى طرطُوسَ وجاء نعي المأمون من البَذَنذُون فرُدَّا في قيدهما إلى الرَّقَة ، وأخرجا من الرقة في سفينة مع قوم محتبسين ، فلما صاروا بعَانَة توفي محمد بن نوح – رحمه الله – فتقدم أبي فصل عليه ، ثم صار إلى بغداد وهو مقيد ممكشت باليَاسريةَ (قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى وبينها وبين بغداد ميلان) أيامًا ، ثم صير إلى الحبس في أكتريت له عند دار عمارة ،ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة في درب الموصلية مكث في السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضُربَ وحُلي عنه ثمانية وعشرين شهرًا .

قال أبي : فكنت أصلي بهم وأنا مُقيَّد .

وأخذت الفتنة مدى أوسع وأعنف في عهد المعتصم فسُجِن الإمام أحمد مرة أخرى ، وكان يُصلي وينام والقيد في رجله ، وفي كل يوم يرسل إليه المعتصم من يناظره ويهدده إن لم يجب بأشد مما هو عليه ، ثم يزداد في قيوده وضربه فيأتي المعتصم يناظره ويناظرونه ، وكان أبي يقول : يا أمير المؤمنين ! أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سُنَّة رسول الله – ﷺ – .

فلما طال بنا المجلس ضجر فقام فرددت إلى الموضع الذي كنت فيه ، ثم وجه إلى برجلين سماهم وهما صاحب الشافعي وغسان من أصحاب ابن أبي دواد يناظراني ، فيقيمان معي حتى إذا حضر الإفطار وجه إلينا بمائدة عليها طعام فجعلا يأكلان وجعلت أتعلل حتى تُرفع المائدة ، وأقاما إلى غد ، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي داود فيقول لي : يا أحمد يقول لك أمير المؤمنين ما تقول : فاقول له : أعطوني شيئًا من كتاب الله – عز وجل – أو سُنة رسول الله – – حتى أقول به .

فقال لي ابن أبي دواد : والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ، ولقد ساءني أخذهم إليك ، وإنه والله ليس السيف إنه ضرب بعد ضرب ثم يقول لي : ما تقول فأرد عليه نحوًا مما رددت عليه ، فلما كان في اليوم الثالث أدخِلتُ عليه والقوم حضور ، فجعلت أدخل من دار إلى دار وقوم معهم السيوف وقوم معهم السَّياط وغير ذلك من الزَّي والسَّلام ، وقد حُشِيت الدار بالجند، ولم يكن في اليومين كبير أحد من هؤلاء ، حتى إذا صرت إليه ، قال : ناظروه وكلموه فعادوا لمثل مناظرتهم ، فدار بيننا وبينهم كلام كثير حتى إذا كان في الوقت الذي كان يخلوا بي فيه فجاءني ثم اجتمعوا فشاورهم ، ثم نحاهم ودعاني فخلا بي وبعبد الرحمن ، فقال لي : ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني فأجبني ، فقلت يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سُنَّة رسوله – ﷺ– فلما ضجر وطال المجلس قال : عليك لعنة الله لقد كنت طمعتُ فيك ، خذوه اخلعوه اسحبوه .

قال : فأُخِذْت وسُحبت ثم خلعت ، ثم قال العُقابين ، وهما (خشبتان يُشدَّ الرجل بينهما للجلد)، والسياط فجيء بعقابين والسياط، فقال لي إنسان ممكن: خذ ناتِئ الخشبتين بيدك وشدَّ عليهما ، فلم أفهم ما قال : فتخلّعَت يداي لَمَّا شُدت ولم أمسك الخشبتين .

قال أبو الفضل : ولم يزل أبي يتوجع منهما إلى أن توفى ثم قال للجلادين: تقدموا : فنظر إلى السياط فقال : ائتوا بغيرهما ، ثم قال لهم : تقدموا فقال لأحدهم : ادنه ، أوجع قطع الله يديك ، فتقدم فضربني سوطين ثم تنحَّى .

ثم قال للآخر : ادنه ، أوجع شد قطع الله يدك ، ثم تقدم فضربني سوطين ، ثم تنحى ، فلم يدعو واحدًا بعد واحد ، يضربني سوطين ويتنحى ثم قام حتى جاءني وهم مُحدقون به ، فقال : ويحك يا أحمد تقتل نفسك ؟، ويحك أجبني

حتى أطلق عنك يدي .

قال : فجعل بعضهم يقول لي : ويحك ؛ إمامك على رأسك قائم .

قال : وجعل عُجيفَّ ينخسني بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟، وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم ، قال: يقول بعضهم : يا أمير المؤمنين دمه في عنقي فاقتله .

قال : ثم رجع فجلس على الكرسيِّ ثم قال للجلاد: أدنه شدَّ قطع الله يدك، ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربني سوطين ويتنحى وهو يقول له : شد قطع الله يدك ، ثم قام إلى الثانية فجعل يقول : يا أحمد أجبني .

وجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لي : من صنع بنفسه هذا من أصحابك في هذا الأمر ما صنعت ؟، هذا يحيى بن معيد وهذا أبو خيثمة وابن أبي إسرائيل، وجعل يَعُدَّ عليَّ من أجاب ، وجعل هو يقول : ويحك أجبني .

قال : فجعلت أقول نحوًا مما كنت أقول لهم ، قال : فرجع فجلس ثم جعل يقول للجلاد : شد قطع الله يدك .

قال أبي : فذهب عقلي مرارًا ، فكان إذا رفع عني الضرب رجعت إليَّ نفسي ، وإني استرخيت وسقطت رفع عني الضرب .

فقال لي إنسان ممن حضر : إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك سارية ودُسناك ! قال أبي : فقلت ما شعرت بذلك .

قال: فجاءوني بسويق ، فقالوا لي : اشرب ، فقلت : لا أفطر ، ثم جئ بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، قال أبي : فنودي لصلاة الظهر ، فصلينا الظهر، قال ابن سماعة : صليت والدَّمُ يسيل من ضَرْبِكَ ؟، فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعبُ دمًا ، فسكت ثم خلى عنه ووجه إليه برجل ممن يبصر الضرب

والجراحات ليعالج فيها ، فنظر إليه فقال لنا : والله لقد رأيت من ضُربَ ألف سوط ما رأيت ضربًا أشدَّ من هذا ، لقد جُرَّ عليه من خلفه ومن قدامه ، ثم أدخل ميلا في بعض تلك الجراحات ، وقال : لم يشعب فجعل يأتنيه ويعالجه، وقد كان أصاب وجهه غير ضربة ، ثم مكث يعالجه ما شاء الله ثم قال : إن ها هنا شئيًا أريد أن أقطعه فجاء بجديدة فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معه وهو صابر ، لذلك يحمد الله في ذلك ، فيبرأ منه ، ولم يزل يتوجع من مواضع منه وكان أثر الضرب بيَّنا في ظهره إلى أن توفى -رحمة الله عليه- .

قال أبو الفضل : سمعت أي يقول: والله لقد أعطيتُ المجهود من نفسي ، ولو ودتت أن أنجو من هذا الأمر كفافًا لا عليَّ ولا لي [1].

(١) سيرة الإمام أحمد بن حنبل (ص٣٢) ، لأبي الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ، وحلية الأولياء (٩/ ١٩٦)، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٢٠٤)، لأبي عبد الله محم بن أحمد الذهبي .

٣٦

فطنة وبصيرة كان عليها هارون الرشيد

دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما أعطاك، لقد حكمت فقسطت. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ ، فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، وقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً.

قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ،وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: ١٥] ، فتعجبوا من ذلك [١].

(١) نادرة معالم العلم لابن مقصد العبدلي ، جـ٤ ، (ص ٤٩٣) .

٣٧

من كرامات أم أيمن المهاجرة

خرجت أم أيمن مهاجرة إِلى رسول الله - ﷺ - من مكة إِلى المدينة ، وهي ماشية ليس معها زاد وهي صائمة في يوم شديد الحر، فأصابها عطش شديد حتى كادت أن تموت من شدة العطش .

قال: وهي بالروحاء أو قريباً منها، فلما غابت الشمس.

قالت: إذا أنا بحفيف شيء فوق رأسي، فرفعتُ رأسي ؛ فإِذا أنا بدلو من السماء مدلّىً برشاء أبيض.

قالت: فدنا مني حتى إِذا كان حيث أستمكن منه تناولْتُه فشربت منه حتى رويت.

قالت: فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش، وما عطشْتُ بعدها [1].

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥٤-٥٥) وفي الإصابة لابن حجر العسقلاني (٤/ ٤٣٢).

٣٨

أعطيك مالي إن شئت

لما ولي عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أتت عمَّةٌ إلى امرأته فاطمة، فقالت: إني أريد كلام أمير المؤمنين.

قالت لها: اجلسي حتى يفرغ، فجلست، فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجا، فقالت لها فاطمة: إن كنت تريدينه فالآن، فإنه إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجه.

فقامت، فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت، وهو يتعشى، فقالت: يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي.

قال: وما ذاك يا عمة؟.

قالت: لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا.

قال: ليس عندي يا عمة، ولو كان عندي لفعلت.

قالت: يا أمير المؤمنين، كان عمك عبد الملك يجري عليَّ كذا وكذا، ثم كان أخوك الوليد فزادني، ثم وليت أنت فقطعته عني.

قال: يا عمة، إن عمي عبد الملك، وأخي الوليد، وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وليس ذاك المال لي فأعطيكه، ولكني أعطيك مالي إن شئت.

قالت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ .

قال: عطائي مائتا دينار، فهو لك؟ .

قالت: وما يبلغ مني عطاؤك؟ .

قال: فليس أملك غيره يا عمة.

قالت: فانصرفت عنه [1].

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص٦٤).

٣٩

حمي الوطيس

كان بُهلول يومًا جالسًا والصبيان يؤذونه، وهو يقول: لا حول ولا قوة إلَّا بالله، يعيدها مرارًا، فلما طال أذاهم له أخذ عصاه وقال: حمي الوطيس وطابت الحرب، وأنا على بيّنة من ربي تعالى، ثم حمل عليهم وهو يقول:

أشـــدّ عـلى الكتيبة لا أبـالي أفيها كـان حتفي أم سواها

فتساقط الصبيان بعضهم على بعض وتهاربوا، فقال: هزم القوم وولّوا الدبر، أمرنا أمير المؤمنين ألّا نتبع موليّا ولا نذفّف على جريح، ثم رجع وجلس وطرح عصاه وقال:

فألقت عصاها واستقّرت بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر(١)

لقمان الحكيم

أمر لقمان الحكيم خادمه بأن يذبح شاة ويأتيه باطيب ما فيها ، فذبح الخادم الشاه وأعطاه القلب واللسان، ثم أمره ثانية بأن يذبح شاة ويأتيه بأخبث مافيها، فذبح الخادم الشاة وأعطاه القلب واللسان ، فقال لقمان الحكيم لخادمه: لماذا في كل مره تاتيني بالقلب واللسان ؟! ، فقال الخادم: ياسيدي ما أطيب من القلب واللسان إذا طابا ، ولا أخبث من القلب واللسان إذا خبثا ، فقال لقمان: كدت أن تكون لقمان الحكيم (٢) .

(١) ، (٢) أنيس الأسرة ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ ، محمود بن عبد الله بن عبد المحسن .

٤٠

أعطاني بكل درهم عشرة ... أعندكم زيادة ؟!

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر –رضي الله عنه–، فلما اشتد بهم الأمر جاؤوا الى أبي بكر وقالوا:ياخليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟ فقال لهم:انصرفوا واصبروا، فاني أرجو الله ألا تُمسوا حتى يُفرج الله عنكم.

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيرًا– إبلًا– لعثمان بن عفان– جاءت من الشام، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسقة بُرًا وزيتًا وزبيبًا فأناخت بباب عثمان–رضي الله عنه– فلما جعلها في دارة جاء التُجار ، فقال لهم: ماتريدون؟قالوا أنك لتعلم مانريد!.

بعنا من هذا الذي وصل اليك، فانك تعلم ضرورة الناس إليه ! ، قال:حُبًا وكرامة، كم تُربحونني على شرائي؟، قالوا: الدرهم درهمين:قال أُعطيت زيادةً على هذا ، قالوا أربعة، قال أعطيت زيادة على هذا ، قالوا :خمسة قال:أُعطيت زيادةً على هذا ، قالوا:ياأبا عمرو، مابقي في المدينة تُجارٌ غيرنا وما سبقنا اليك أحدٌ، فمن ذا الذي أعطاك؟! .

قال:ان الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟، قالوا: لا. قال:فأني أُشهد الله أني جعلت ماحملت هذة العيرُ صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين(١).

(١) تيسير المنان في سيرة عثمان بن عفان ، للدكتور / علي محمد الصلابي .

٤١

أهزل الناس

كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأولعهم بالمزاح ، فأقبل يومًا أعرابي يتلظى كأنه أفعى، والشر بين في وجهه، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، وكان معه جمل.

فقال أبان: هذا والله من البادية، ادعوه لي، فدعوه له وقيل: إن الأمير أبان ابن عثمان يدعوك، فأتاه فسلم عليه، فسأله أبان بن عثمان عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حياك الله يا خال، اجلس، فجلس. فقال له: إني أطلب جملاً مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهي بهذه الصفة وهذه الهامة والصورة والورك والأخفاف، والحمد لله الذي جعل ظفري به عند من أحبه، أتبيعنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير. قال: فإني قد بذلت لك به مائة دينار، فطمع الأعرابي وسر بذلك وانتفخ، وبان الطمع في وجهه.

فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالي هذا من أهلك وأقاربك يعني: في الطمع فأوسع له مما عندك، قال: نعم، بأبي أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنما زدتك في الثمن على بصيرة أن الجمل يساوي ستين ديناراً، ولكني بذلت لك مائة دينار لقلة النقد عندنا، وإني أعطيك عروضاً تساوي مائة دينار، فزاد طمع الأعرابي وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير.

وأسر أبان إلى أشعب، فأخرج شيئاً مغطى، فقال له: أخرج ما جئت به،

فأخرج جرد عمامة تساوي أربعة دراهم. فقال له: قومها يا أشعب. فقال: عمامة الأمير تساوي أربعة دراهم. فقال له: قومها يا أشعب. فقال: عمامة الأمير يشهد فيها الأعياد والجمع ويلقي فيها الخلفاء! خمسون ديناراً.

قال: ضعها بين يديه، وقال لكاتبه : أثبت قيمتها، فكتب ذلك، ووضعت العمامة بين يدي الأعرابي، فكاد يدخل بعضه في بعض غيظاً، ولم يقدر على الكلام. قال: هات قلنسوتي، فأخرج قلنسوة طويلة خلقاً قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوي نصف درهم. قال: قوم، فقال: قلنسوة الأمير تعلو هامته، ويصلي فيها الصلوات الخمس، ويجلس فيها للحكم! ثلاثون ديناراً. قال: أثبت، فأثبت ذلك، ووضعت القلنسوة بيد يدي الأعرابي فأربد وجهه وجحظت عيناه وهم بالوثوب، ثم تماسك وهو مقلقل.

ثم قال لأشعب: هات ما عندك، فأخرج خفين خلقين قد نقبًا وتقشرًا وتفتتا، فقال: قوم، فقال: خفا الأمير يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم! أربعون ديناراً، فقال: ضعهما بين يديه. ثم قال للأعرابي: أضمم إليك متاعك، وقال لبعض الأعوان: امض مع الأعرابي واقبض ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع، وهو عشرون ديناراً.

فوثب الأعرابي فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو في شدة الرمي، ثم قال له: أتدري في أي شيء أموت؟ قال: لا، قال: لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ ولد مثلك! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بعيره، وضحك أبان حتى سقط، وضحك من كان معه [1].

(١) أنيس الأسرة ، جـ٢ ، حمود المطر ، ص (١٣٥-١٣٦) .

٤٢

السيئة تعم والنعمة تخص

انتشر بين كثير من الناس هذا المبدأ الخطأ ، وهذا تكريس للظلم بين عموم الخلق ، والله سبحانه قضى بالعدل والإنصاف بين عموم خلقه ، وكان منه سبحانه التوجيه الكريم لأنبيائه وأصفيائه من خلقه - صلوات الله عليهم وسلامه- .

وقد أخرج الإمام البخاري -رحمه الله - عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -يقول: «**قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت ، فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أُمة من الأمم تسبح**» [(١)].

وفي رواية أخرى « **نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر ببيتها فأُحرق بالنار ، فأوحى الله إليه فهلَّا نملة واحدة** » [(٢)]، وقوله : « نزل نبي من الأنبياء » قيل هو العزيز .

وقوله : « فأمر بجهازه » : أي متاعه .

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠١٩) .
(٢) رواه البخاري برقم (٣٣١٩) .

٤٣

لا تسرف فهذا يجزي عن هذا

كَانَ مسلمة بن عبد الْملك من أشرف أموي وأعظمه تملكًا وأسرفه فِي الطَّعَام فَبلغ عمر بن عبد الْعَزِيز سرفه فِي طَعَامه فَأمره أَن يبكر عَلَيْهِ وَأمر عمر بن عبد الْعَزِيز بطبيخ ثريد عدس وبألوان من لحم فَلَمَّا غدا عَلَيْهِ مسلمة بن عبد الْملك أَقَامَ عِنْده حَتَّى تَعَالَى النَّهَار وَوجد الْجُوع فَقَامَ ليذْهب فحبسه عمر وَقَالَ لَهُ اجْلِسْ ثمَّ أَقَامَ حَتَّى انتصف النَّهَار ثمَّ قَامَ فَقَالَ لَهُ عمر: اجْلِسْ حَتَّى إِذا بلغ من مسلمة الْجُوع فِيمَا يرى عمر دَعَا بطعامه فقربت ثريدة العدس فَأقبل عَلَيْهَا مسلمة فَأكل أكل مجهود قد بلغ مِنْهُ الْجُوع فَلم يأل حَتَّى تملأ فَأمر عمر أَن يرفع ودعا لَهُ بِطَعَام طيب فَقَالَ كل قَالَ قد شبعت مَا فِي فضل قَالَ لَهُ: فَكيف بالسرف فِي الطَّعَام والتقحم فِي النَّار وَهَذَا يَجْزِي عَنهُ.

وَأَرَادَ عمر – رَحِمَه الله – عظته وتأديبه فقصر بعد ذَلِك مسلمة عَمَّا كَانَ يكون عليه (١).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لأبي محمد عبد الله عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ، (ص ٤٤-٤٥).

٤٤

ما ولدت العرب أكرم منك

قال الأصمعي: قصدت في بعض الأيام رجلاً كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بواباً فمنعني من الدخول إليه. ثم قال: والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك الدخول إليه إلا رقة حاله، وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

إذا كان الكريم له حجاب — فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له: أوصل رقعتي هذه إليه ففعل. فعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل الحال — تستر بالحجاب عن الغريم

وأرسل مع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار. فقلت : والله لأتحفن أمير المؤمنين بهذا الخبر، فلما رآني قال لي: من أين يا أصمعي؟، قلت: من عند رجل أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين ، قال: ومن هو؟ ، فدفعت إليه الرقعة والصرة ، وأعدت عليه الخبر فلما رآى الصرة فقال: هذا ختم بيت مالي، ولا بد لي من الرجل الذي أدفعها إليك. فقلت: والله يا أمير المؤمنين إني لأستحي أن أروعه برسلك.

فقال لبعض خاصته : امض إليه مع الأصمعي فإذا أراك الرجل فقل له:

أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج ولا إظهار شدة.

قال: فلما حضر الرجل بين يدي أمير المؤمنين قال: أما أنت بالأمس الذي وقفت بموكبنا وشكوت إلينا ورقة حالك وأن الزمان قد أناخ بك؟، فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك، فقصدك الأصمعي ببيت شعر واحد فدفعتها إليه.

فقال: والله ما كذبت فيما شكوته لأمير المؤمنين من رقة الحال، وصعوبة الزمان، لكني استحييت من الله أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين.

فقال أمير المؤمنين: لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك، فبالغ في إكرامه وجعله من خاصته [١].

---

(١) أنيس الأسرة، لحمود المطر، جـ ٢، ص (٢٠/ ٢١).

٤٥

وقعت على امرأة وأنا صائم

عن سلمة بن صخر البياضي قال :

كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئًا يتابع بي حتى أصبح فظاهرت [١] منها إلى أن ينسلخ [٢] شهر رمضان فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن نزوت [٣] عليها ، فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر، وقلت: امشوا معي إلى رسول اللهِ – ﷺ – قالوا : لا والله لا نمشي معك ، ما نأمن أن ينزل فيك من القرآن أو يكون فيك من رسول الله – ﷺ – مقالة يلزمنا عارها ولنسلمك بجريرتك [٤].

فانطلقت إلى رسول الله – ﷺ – فقصصت عليه خبري [٥] ، فقال: يا سلمة أنت بذلك ، قلت : أنا بذلك، وها أنا صابر نفسي فا أحكم في ما أراك الله قال: فأعتق رقبة ، فضربت صفحة رقبتي ، فقلت: والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك رقبة غيرها ، قال: فصم شهرين متتابعين ، قلت : وهل أصبني إلا الذي

---

(١) أي أنه ظاهر من زوجته إلى أن ينقض شهر رمضان ، قال : أنتِ عليَّ كظهر أمي .
(٢) انسلخ الشهر : إذا مضى شهرر مضان وانتهى .
(٣) نزوت عليها : أي واقعها وعاشرها وهو صائم .
(٤) جريرتك : أي ما قمت به من معاشرة في الصيام ثم الظهار حتى ينتهي رمضان .
(٥) في رواية للبخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – بينما نحن جلوس عند النبي – ﷺ – إذ جاء رجل فقال : يارسول الله ! هلكت ، فقال : مالك ؟، قال وقعت على امرأتي وأنا صائم .

أصبت إلا من الصيام ، قال: فأطعم وسقا [1] من تمر بين ستين مسكينًا ، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا وحشًا [2] ، ما لنا من الطعام ، قال: فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق [3] ، فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكينًا وسِقا من تمر ، وكُل بقيته أنت وعيالك .

فأتيتُ قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند النبي – ﷺ – السعة وحُسن الرأي وقد أمرني بصدقتكم [4] .

---

(١) الوسق : ستون صائمًا ، وقيل الوسق حمل البعير .
(٢) وحشًا : جائعين .
(٣) زريق هو ابن عامر : بطن من الخزرج من الأزد القحطانية .
(٤) رواه البخاري (٤/ ١٦٣) .

٤٦

الزواج ليس الاكراه

استعمل يزيد بْن عبد الملك عَبْد الرَّحْمَنِ بْن الضحاك بْن قيس الفهري عَلَى المدينة ، فخطب فاطمة بنت حسين ، يعني : بْن عَلِيّ ، فقالت : والله مَا أريد النكاح ، ولقد قعدت عَلَى بني هؤلاء ، وجعلت تحاَجره ، وتكره أن تباديه لما يخاف مِنْهُ ، قَالَ : وألح عليها ، فَقَالَ : والله لئن لم تفعلي لأجلدن أكبر ولدك في الخمر ، يعني : عَبْد اللَّه بْن حسن ، قَالَ : فبينا هي كذلك ، وَكَانَ عَلَى ديوان المدينة ابْنِ هرمز ، فكتب إليه يزيد بْن عبد الملك أن يرتفع إليه للمحاسبة ، فدخل عَلَى فاطمة يودعها ، وقال : هَلْ مِن حاجة ؟ فقالت : تخبر أمير المؤمنين مَا ألقى مِن ابْن الضحاك ، وما يتعرض مني .

قَالَ : وبعثت رسولًا بكتاب إلى يزيد تذكر قرابتها ، ورحمها ، وما ينال ابْن الضحاك مِنْهَا ، وما يتوعدها بِهِ، فقدم ابْن هرمز ، فأخبر يزيد ، وقرأ كتابها، فنزل مِن أعلى فراشه ، فجعل يضرب بخيرزانه في يده ، وهو يَقُولُ : لقد اجترأ ابْن الضحاك، مِن رجل يسمعني صوته في العذاب، وأنا عَلَى فراشي؟ قَالَ: ثُمَّ دعا بقرطاس ، فكتب إلى عبد الواحد بْن عَبْد اللَّه النصري ، وهو يومئذ بالطائف: إني قد وليتك المدينة ، فأغرم ابْن الضحاك أربعين ألف دينار، وعذبه حَتَّى أسمع صوته ، وأنا عَلَى فراشي ، وبلغ ابْن الضحاك الخبر ، فهرب إلى الشام ، فلجأ إلى مسلمة بْن عبد الملك فاستوهبه مِن يزيد ، فلم يفعل، وقال: قد صنع مَا صنع ، وأدعه ؟ فرده إلى النصري إلى المدينة ، فأغرمه أربعين ألف دينار ، وعذبه ، وطاف بِهِ في جبة مِن صوف [1] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٧٣) .

٤٧

أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذونك

يقول ابن مقصد العبدلي في نادرة معالم العلم في ترجمة الأحنف بن قيس أنه ابن معاوية بن حصين السعدي أبو بحر كان من سادات الناس وعقلاء التابعين وفصحاء أهل البصرة وحكمائهم ممن فتح على يده الفتوح الكثيرة للمسلمين ومات بالكوفة سنة سبع وستين في إمارة بن الزبير ، وصلى عليه مصعب بن الزبير ومشى في جنازته بغير رواء .

وكان الأحنف بن قيس مشهورًا بين الناس بالحلم وبذلك ساد قومه ، وكان يقول : إني لأجد ما تجدون ولكني صبور .

ومما جاء في حلم الأحنف أن رجلاً قال له : إن قلت واحدةلتسمعن عشرًا، فقال: إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة . وسب رجل الأحنف وهو يماشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا ! إن كان قد بقي معك شيء فهات وقله ههنا ، فإني أخاف أن يُسمعك فتيان الحي فيؤذونك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا !! [١].

(١) نادرة معالم العلم لابن مقصد العبدلي ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

٤٨

حبُّ الانتقام سُمٌّ زُعاف (١).

في كتاب (المصلوبون في التاريخ) قصصٌ وحكاياتٌ لبعض أهل البطشِ الذين أنزلوا بخصومهم أشدَّ العقوباتِ وأقسى المُثلات، ثم لما قتلوهم ما شفى لهم القتلُ غليلاً، ولا أبرد لهم عليلاً، حتى صلبوهُم على الخُشُب، والعَجَبُ أن المصلوب بعد قتلِه لا يتألَّم ولا يُحسُّ ولا يتعذبُ، لأن روحه فارقتْ جسمه، ولكن الحيَّ القاتلَ يأنسُ ويرتاحُ، ويُسرُّ بزيادةِ التنكيلِ أبداً ولن تسعد، لأن نار الانتقامِ وبركان التشفِّي يدمِّرُهم قبل خصومِهِمْ.

وأعجبُ من هذا أن بعض خلفاءِ بني العباس فاته أن يقتل خصومه من بني أمية، لأنهم ماتُوا قبل أن يتولَّى، فأخرجهم من قبورهم وبعضُهم رميمٌ فجلدهم، ثم صلبهم، ثم أحرقهم. إنها ثورةُ الحقدِ العارمِ الذي يُنهي على المسرَّاتِ وعلى مباهجِ النفسِ واستقرارِها.

إن الضرر على المنتقمِ أعظمُ، لأنه فَقَدَ أعصابَه وراحته وهدوءهُ وطمأنينته.

لا يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ مِنْ نَفْسِهِ

﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

(١) لا تحزن، الطبعة التي بها بحث: كيف تكون أسعد الناس، للشيخ عائض القرني، طبعة مكتبة الصحابة، الإمارات، (ص ٣٩٢-٣٩٣).

٤٩

غير عتبة بابك

ومما يتجلى في سيرة خليل الرحمن – عليه الصلاة والسلام – شدة حرصه على أن تكون امرأة ولده صابرة شاكرة ، ويدل على ذلك ما رواه الإمام البخاري –رحمه الله– عن ابن عباس –رضي الله عنهما– في رواية طويلة – :

فجاء إِبْرَاهِيمُ بَعْدما تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يطالعُ تركتهُ، فَلَمْ يَجِد إِسْمَاعِيل فسأل امرأته عنه .... ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت : نحن بشرٍ نحن في ضيق وشدّةٍ وشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي – عليه السلام – وقولي له يُغيّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال:هل جاءكم من أحد؟ ، فقالت:نعم جاءنا شيخ كذا كذا ، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك غيّر عتبة بابك.

قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوَّج منهم أخرى .

فلبث عنهم إبراهيم – عليه السلام –ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه؟ ، فقالت: خرج يبتغي لنا... قال: كيف أنتم؟وسألها

عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ ، قالت: الماء. قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه.فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟.

قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ ، قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك [1].

ومما يلاحظ في هذه الرواية أن خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - لما وجد زوج ابنه شاكية غير شاكرة لم يرض أن يعيش معها ابنها ، فترك رسالة لابنه بتطليقها ، وفي المرة الثانية لما رأى امرأة ابنه الجديدة شاكرة حامدة لله -عز وجل- رضيها لابنه وترك رسالة بإمساكها .

وفي هذا تجلى حرص سيدنا إبراهيم -عليه السلام- على أن تكون زوج ابنه متحلية بالأخلاق الفاضلة من الشكر لله - عز وجل - والثناء عليه .

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، جزء من رقم الرواية (٣٣٦٤)، (٦/ ٣٩٧) .

٥٠

فعلام الهم ؟!!

مر إبراهيم بن أدهم على رجل ينطق وجهه الهمَّ والحُزن ، فقال له إبراهيم : أيها الرجل إني سألك عن ثلاثة فأجبني ، قال الرجل : نعم .

فقال إبراهيم : أيجري في هذا الكون شيء لا يريده الله ؟ .

قال : كلا .

قال إبراهيم : أفينقص رزقك شيء قدره الله ؟.

قال : كلا .

قال إبراهيم : أينقص من أجلك لحظة كتبها لك الله في الحياة ؟ .

قال الرجل : كلا .

قال إبراهيم : فعلام الهم ؟! [١].

(١) أنيس الأسرة ، حمود المطر ، جـ ٢ ، ص (٩٨-٩٩) .

٥١

المصلحة

المصلحة : ما يتعاطاه الإنسان من الأعمال الباعثة على النفع .

حكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقًا شديدًا فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: اني أرقت هذه الليلة وضاق صدري، ولم أعرف ما أصنع؟، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه، فضحك فقال له: ما يضحكك؟ استهزاء بي أم استخفافا؟.

فقال: وقرابتك من سيد المرسلين، ما فعلت ذالك عمدا، ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر الى أن جئت الى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلًا واقفًا يضحك الناس، يقال له ابن المغازلي، فتفكرت الآن شيء من حديثه وكلامه فضحكت، والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: ائتني الساعة به! .

فخرج مسرعًا الى أن جاء الى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين! ، فقال: سمعًا وطاعة! ، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع، والبقية لي.

قال: بل اجعل لي النصف ولك النصف.

فأبى، فقال: الثلث لي ولك الثلثان.

فأجابه إلى ذالك بعد جهد عظيم، فلما دخل على هارون الرشيد سلم فأبلغ، وترجم فأحسن، ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار، وان لم تضحكني أضربك بهدا الجراب ثلاث ضربات.

فقال ابن المغازلي في نفسه: وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهدا الجراب؟، وظن في نفسه أن الجراب فارغ، فوقف يتكلم، ويتمسخر، وفعل أفعالًا عجيبة تضحك الجلمود، فلم يضحك الرشيد، ولم يبتسم، فتعجب منه ابن المغازلي، وضجر، وخاف فقال له الرشيد: الآن استحققت الضرب! .

ثم انه أخد الجراب ، ولفه، وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة، وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين! اسمع مني كلمتين، قال: قل ما بدا لك! .

قال: إن مسرور شرط عليَّ شرطًا، واتفقت أنا واياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان، ولي الثلث، وما أجابني إلى ذلك الا بعد جهد عظيم، وقد شرط علي أمير المؤمنين ثلاث ضربات، فنصيبي منها واحدة، ونصيبه منها اثنتان،وقد أخذت نصيبي وبقي نصيبه.

قال: فضحك الرشيد، ودعا مسرورًا، فضربه، فصاح وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي.

فضحك الرشيد.وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منها خمسمائة دينار ورجع ابن المغازي شاكرًا ، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم [١] .

---

(١) نادرة المعالم لابن مقصد العبدلي ، جـ٢ (ص ٣٥٥ - ٣٥٦) .

٥٢

حديقة الموت !!

حديقة الموت يدخلها البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندث بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصاري المدني البطل الكرار، صاحب رسول الله -ﷺ- وأخو خادم الرسول أنس بن مالك -رضي الله عنهما- شهد أُحد وبايع تحت الشجرة .

قال عنه الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- : « لا تُولوا البَراءَ جيشًا من جيوش المسلمين مخافة يُهلك جُندهُ بإقدامه » .

بعد وفاة رسول الله -ﷺ- ارتدت قبائل العرب عن الإسلام وكانت أشد القبائل قوة وأكثرهم عددًا أصحاب مُسليمة الكذاب ، فأرسل لهم الصديق جيشًا بقيادة خالد بن الوليد- وكان معهم البراء بن مالك الأنصاري-رضي الله عنهما- .

فالتقى الجيشان على أرض اليمامة في أول المعركة رجحت كفة مسيلمة وأصحابة على المسملين حتى اقتحوا خيمة القائد خالد بن الوليد -رضي الله عنه- وقلعوها من أصولها .

فأدرك خالد -رضي الله عنه- الخطر وعرف بأس خصمه وقوته ، فأعاد تنظيم جيشه وميز كل قوم من غيرهم ، ثم دارت رحى الحرب مرة أخرى وظهرت بطولات المسلمين إلا أنها تتضاءل امام بطولات البراء بن مالك -رضي الله عنه- ، فكان يقول لقومه : « يا معشر الأنصار لا تفكروا بالرجوع إلى المدينة ، فلا مدينة لكم بعد اليوم ، وإنما هو الله وحده ... ثم إلى الجنة » .

فحملوا على مُسيلمة وأصحابه حتى ألجئوهم إلى الحديقة التي عُرفت بعد ذلك باسم (حديقة الموت) ، لكثرة من قُتل فيها ، فتحصنوا فيها وأغلقوا أبوابها وجعلوا يرشقون المسلمين بنبالهم ، فقال البراء بن مالك - رضي الله عنه -: يا قوم احملوني على ترس وارفعوا الترس برماحكم ثم اقذفوني في داخل الحديقة، فإما أن أُستشهد وإما أن أفتح لكم الباب .

فرفعوه على الترس ، وكان البراء - رضي الله عنه - نحيل الجسم ، فألقوه في وسط الآلاف من جُند مُسيلمَة ، فاقتحم عليهم كالصاعقة ، وقاتل حتى فتح الباب، فجُرح يومئذ بضعة وثمانين جرحًا ؛ فحُمل إلى رحلة ليُداوى وأقام خالد بن الوليد - رضي الله عنه - عليه شهرًا يداوي جراحه .

في هذه الملحمة كُتب النصر على يدي البراء - رضي الله عنه - إلا أنه لم يُرزق الشهادة التي كان يتمناها في حديقة الموت ، وظل يطلبها في كل معركة يخوضها إلى أن جاء حصار (تُسْترَّ) من بلاد فارس ، فحاصروها وطال الحصار حتى صعب على المسلمين فتحها ، فجاءوا إلى البراء - رضي الله عنه - فقالوا له : يا براء لو أقسمت على ربك أن يمنحنا أكتافهم لأبرَّك . فقال - رضي الله عنه - : أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم ، فمنحوا أكتافهم ثم التقوا على مَنظرة السوس فأوجعوا في المسلمين ، فقالوا : أقسم يا براء على ربك -عز وجل - قال : أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقني بنبيك - صلى الله عليه وسلم - ، فمُنحوا أكتافهم وقُتِل البراء - رضي الله عنه - شهيدًا [1].

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » [2]. [3]

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٥)، وحلية الأولياء (١/ ٧) . .
(٢) رواه البخاري (٢٥٠٤) ، ومسلم (٣١٧٤) ، وأحمد (١٣٥١٧) .
(٣) أوردها صاحب نادرة المعالم في الجزء الثاني ص (٢٠/ ٢١) .

٥٣

عروسة النيل ... خرافة !!

لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص – رضي الله عنه – حين دخل بؤنة (من أشهر العجم) فقالوا : أيها الأمير ، لنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلا بها .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر (كانوا يطلقون عليها عروسة البحر) من أبويها، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا مما لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما قبله . قال : فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لا يجري قليلًا ولا كثيرًا ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –بذلك ، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذي فعلت ، وإني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي ، فألقها في النيل .

فلما قدم كتابه أخذ عمرو– رضي الله عنه – البطاقة فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد ، فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك ، فنسأل الله تعالى أن يجريك .

قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت، وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم [١].

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن قيس بن الحجاج .

٥٤

الحسن البصري ينصح ابن هبيرة

أورد صاحب تهذيب الكمال : كان ابن هبيرة كان واليًا على العراقين؛ والمقصود بـ العراقين البصرة والكوفة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان يزيد يرسل إليه بالكتاب تلو الكتاب ويأمره بإنفاذ ما في تلك الكتب ولو كان مجافياً للحق أحيانا، فدعا ابن هبيرة عالميْن؛ هما الحسن البصري، وعامر الشعبي يستفتيهما في ذلك، هل له مخرج في دين الله أن ينفذ تلك الكتب؟.

فأجاب الشعبي جوابًا فيه ملاطفة ومسايرة والحسن ساكت، فالتفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال: يـابن هبيرة! خَف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، واعلم أن الله عز وجل يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يـابن هبيرة! إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.

يـابن هبيرة! إنك إن تكن مع الله وفي طاعته يكفك بائقة يزيد، وإن تكن مع يزيد في معصية الله فإن الله يكلك إلى يزيد.

فبكى ابن هبيرة حتى بللت دموعه لحيته، ومال عن الشعبي إلى الحسن وبالغ في إعظامه وإكرامه.

فلما خرجا من عنده توجها إلى المسجد فاجتمع عليهما الناس وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع ابن هبيرة، فالتفت الشعبي إليهم وقال: أيها الناس! من استطاع منكم أن يؤثر الله -عز وجل- على خلقه في كل مقام فليفعل؛ فوالذي نفسي بيده! ما قال الحسن لابن هبيرة قولاً أجهله، ولكني أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة، وأراد الحسن وجه الله فأقصاني الله منه، وأدنى الحسن وحببه إليه [١].

وصدق من قال : [٢]

يا من يرى ما في الضمير و يسمع — أنت المعدّ لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها — يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن — امنن فان الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري اليك وسيلة — وبالافتقار اليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة — فلئن طردت فأي باب أقرع
و من الذي أدعو و أهتف باسمه — ان كان فضلك عن فقير يمنع
حاشا لجودك أن تقنِّط عاصيا — الفضل أجزل و المواهب أوسع
ثم الصلاة على النبي و آله — من جاء بالقرآن نورًا يسطع

---

(١) تهذيب الكمال ، عبد الغني بن سعيد المقدسي .
(٢)من رحلة مع الصادقين ، للشيخ / محمود المصري ، ص (٩٣) .

٥٥

أطلق منصور الجمَّال من السجن

يقول ابن مقصد العبدلي في نادرة معالم العلم : قال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال : لا تبرحوا حتى أغفى سويعة ، فغفا ساعة ثم أفاق جزعًا مرعوبًا وقال : امضوا إلى السجن وائتوني بمنصور الجمَّال ، فجاءوا به ، فقال له : كم لك في السجن ؟، قال : سنة ونصف ، قال: على ماذا ؟.

قال : أنا جمَّال من أهل الموصول وضاق عليَّ الكسب ببلدي ، فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه ، فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال ، وهو مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق فدفع واحد منهم شيئًا للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي ، فناشدتهم الله فأبوا وسُجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا ، فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل شهر، وقال : اجعلوه على جمالنا ، ثم قال : أتدرون ما سبب فعلي هذا ؟، قلنا : لا ، قال : رأيت رسول الله -ﷺ- وهو يقول : أطلق منصور الجمَّال من السجن ، وأحسن إليه [1].

---

(١) نادرة معالم العلم ، جـ٢ ، ص (٣٧٨/ ٣٧٩) .

٥٦

أسد برقة ... عمر المختار

تحرك الأسطول الإيطالي وبدأ بقصف مدينة درنة يوم السابع من شوال (١٣٢٩هـ) وفي اليوم العاشر انتقل بقصف مدينة طرابلس، ولم ينقض الشهر حتى احتل الطليان مدن : طرابلس ، وبنغازي ، ودرنة .

وكانت الحملة الإيطالية تتألف من ثلاثمائة وأربعين ألف مقاتل ، وستة ألاف وثلاثمائة حصان ، وألف وخمسين عجلة ، وثمانية وأربعين مدفع ، وأربعة وخمسين مدفعًا جبليًا ، وكان طريق البحر مفتوحًا لنقل الاحتياط والعتاد والسلاح والمؤن عند الحاجة ، إضافة إلى أن أسواق الدول الأوروبية والنصرانية الأخرى مفتوحة للسلاح والمؤن ولا تتوانى الأساطيل التجارية عن النقل ، إن دعت الضرورة لذلك .

حشد بادوليو قوة ضخمة مشحونة بالحقد على الإسلام ، وسُمح لها بعمل كل شيء ، وما أبشع ما يرتكبه الخائف إذا انتصر ، والحاقد إذا غلب ، والذليل إذا عز، والفقير إذا أبطرته النعمة !! ، وهذا ما كان من جنود الطليان في ليبيا، كانوا كأنهم بهائم رُبطت منذ مدة ، ثم تُركت ترتع سائمة في مرعى غض، فكانت أعمالهم وحشية يندى لها جبين الإنسانية لما ارتكبوه من قتل الرجال صبرًا أمام ذويهم حتى صار عدد القتلى من المسلمين في منطقتي برقة وطرابلس (٥٧٠٩٢٨) إنسانًا ؛ وانتهكت حُرمات المساجد ، وديست المصاحف بالأقدام – ولا حول ولا قوة إلا بالله – .

وكـم مـن مسجد جعلوه ديـرًا   عـلى محـرابـه رسـم الصليب
دم الخنزير فيهم لهـم خلوف   وتحـريـف المصاحب فيه طيب

أما عن صنيعهم مع المسلمات فحدث ولا حرج ، سبيت العذارى ، وصُلب أكثرهن عاريات .

بـنـات المـسـلـمـين هـنـا سبايا   وشمس المكرمات هنا تغيب
تبيت كـريـمـة لـيـلى وتصحو   وقـد ألـغـى كرامتها الغريب
تخبئ وجهها ياليب شعري   بـماذا ينطق الـوجـه الكئيب

هنا انتفض الأسد الرابض في برقة عمر المختار [1]، ليستخلص هؤلاء النسوة من براثن الصليبين وليمحوا وصمة الذل الدفين من نفوس البائسين، وينفض غبار المهانة العالق على محياهم ، فمن الألام تبزغ الآمال ، والمحن تصنع الرجال، فكان أن سطَّر بحروف من نور سجل حافل للانتصارات والبطولات النادرة التي تصدقها العقل ، وما كانت تخطر حتى الأحلام .

لا تُهـيـئ كفنى مـا مـتُ بعد   ولم يـزل في أضلعي بـرق ورعـدُ

---

(١) عمر بن مختار بن عمر المنفى : ينتمي إلى قبيلة (منفه) التي تنتقل في بادية برقة ، ولد عام (١٢٧٥هـ) في البطنان ببرقة ، وتعلم في زاوية السنوسين في جغبوب ، وجعله محمد المهدي الإدريسي شيخًا على زاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج ، وسافر معه إلى السودان، وتسلم مشيخه زاوية كلك حتى عام (١٣٢١هـ) ، حيث رجع برقة وإلى مشيخة زاوية القصور، خرج لجهاد الطليان بعد أن احتلوا مدينة بنغازي عام (١٣٢٩هـ) وصمد للعدو صمودًا منقطع النظير ، وبينما هو في سرية يستطلع مواقع العدو فوجئ بقوة من الأعداء أحاطب به فقاتلها ، واستشهد أكثر من كان معه ، وأصيب هو بجروح ، وحملوه أسيرًا ثم أعدم شنقًا عام (١٣٥٠هـ) فكان عمره خمسة وسبعون عامًا ، التاريخ الإسلامي للشيخ / محمود شاكر - رحمه الله- (١٤/ ٢٣) .

اتخذ عمر المختار مدينة شحات في الجبل الأخضر مقرًا لقيادته ، وأحرز عدة انتصارات على الأعداء ، الأمر الذي جعلهم يفكرون بالاستيلاء على المناطق المحيطة بالجبل الأخضر ، ولكنهم هزموا شر هزيمة ، كما هُزموا في محاولاتهم احتلال فزان ، واستمر عمر المختار يرفع لواء الجهاد ، ويقوم بحرب العصابات، وخاصة في برقة في منطقة الجبل الأخضر ، وبقى في جهاده مدة ثمان سنوات من سنة ١٣٤٢ إلى ١٣٥٠ هـ ، وقد انقطعت عن ليبيا خلال هذه المدة كل الإمدادات والمساعدات التي كانت تصل إليها من الخارج،ومن بعض المسلمين،ومن البلدان العربية المجاورة ، واستمر في جهاده ، وبينما كان يستطلع مع خمسين من فرسانه قوات العدو في سلطنة ، فوجئ بقوات ضخمة للعدو ، فاصطدم معها، واستشهد أكثر فرسانه ، وسقط هو مثخنًا بالجراح وقد قُتل جواده، وحمله الأعداء أسيرًا ولم يعرفوه،وذلك في تاريخ ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٥٠هـ، ولما عرفوه نقلوه بسرعة إلى سوسة ، ومنها أركب الطراد أوسيني وسجن أربعة أيام ، ثم حوكم محاكمة صورية ، وأجاب غير هيَّاب وأخذ على نفسه مسئولية كل ما حدث من أعمال الجهاد، فقررت المحكمة إعدامه على الرغم من عمره يزيد على الخامسة والسبعين ، فأُعدم في اليوم التالي شنقًا في ٤ جماد الأولى ١٣٥٠هـ ، بمركز سلوق في بنغازي ، وأُجبر الأهالى على مشاهدة إعدامه ، وكان منظرًا مؤثرًا ورهيبًا أثار الناس وحرك فيهم روح الجهاد ، مما جعل الطغاة يخشون عاقبة ما قاموا به ، فدفنوه سرًا ، وأخفوا معالم القبر .

لقد خاض عمر المختار –رحمه الله – مائتين وثلاثًا وستين معركة خلال

العشرين شهرًا الأخير ، وكانت أشهر هذه المعارك : « الرحيبة – عقيدة المطمورة – كرست » ، وهي أسماء معارك في الجبل الأخضر في منطقة برقة.

فألبس الله هاتيك العظام وإن تلين تحت الثرى عفوًا وغفرانًا
سقى ثـرى أودعــوه رحمـة ملأت مثوى قبورهم روحًا وريحانًا [(١)]

(١) التاريخ الإسلامي ، الشيخ / محمود شاكر -رحمه الله- (١٤/ ١٧) .

٥٧

بسبب صلاحه يخرج من السجن

عن خلاد بن يزيد الباهلي قال : حُبس عبيد الله بن زياد فيمن حُبس من الخوارج مرداس بن أدية ، فكان السجان يرى عبادتهُ واجتهاده ، فكان يأذن له بالليل ينصرف إلى منزله ، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن .

وكان صديقٌ لمرداس يسافر ابن زياد فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فاعتزم على قتلهم إذا أصبح ، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس ، فأخبرهم ، وقال: أرسلوا إليَّ أبي بلال في السجن فليعهد فإنه مقتول ، فسمع ذلك مرداسُ وبلغ الخبر السجان فبات بليلة سوءٍ إشفاقًا من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجعُ، فلما كان في الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع ، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟، قال : نعم ، ثم غدوت؟!! ، قال : ثم غدوت ولم يكن جزاؤك مع إحسانك إليَّ أن تُعاقب بسببي.

وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج ، ثم دعا بمرداس بن أويَّة فلما أُحضر وثبت السجان وكان ظئرًا [١] لعبيد الله ، فأخذ بقدمه وقال : هَبْهُ لي ، وقص عليه قِصَّتهُ ، فوهبهُ له وأطلقه [٢] .

(١) الظئر : زوج المرضعة ، يريد أن السجان كان زوجًا لمرضعة عبد الله بن زياد فله دلالة عليه .
(٢) الفرج بعد الشدة والضيقة ، إبراهيم الحازمي ، جـ٧ ، ص (٢٦) برقم (٥١١) .

٥٨

قصة بناء القيروان (١)

في سنة خمسين للهجرة ، أراد عقبة - رضي الله عنه - أن تكن للمسلمين قاعدة حصينة تنطلق منها الجيوش وتعود إليها كحامية إسلامية ، و في الوقت نفسه ترسيخ ونشر قواعد الدين في تلك المنطقة .

لكن المنطقة التي اختارها مليئة بالوحوش والسباع والحياة والثعابين ، فقال له رجاله : « إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباعٍ والحيَّات وغير ذلك من دواب الأرض » ، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجمعهم وقال : « إني داع فأَمِّنُو»، وبالفعل دعا الله- عز وجل - طويلاً والصحابة والناس يأمنون ً، ثم قال مخاطبًا سكان الوادي : « أيتها الحيَّات والسِّباع ، نحن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فارتلحوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه » .

فحدثت بعدها كرامة هائلة حيث خرجت السباع من الأحراش تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجريتها ، والحيَّات تحمل جِرباشها ، في مشهد لا يرى مثله في التاريخ . فنادى عقبة - رضي الله عنه - في الناس : (كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا) ، وهكذا يصل الإيمان والثقة بالله عز وجل ، لهذا المستوى الفائق من اليقين بنصرة الله عز وجل وتأييده ومدده ، فهذا هو البطل المجاهد يصل به الإيمان والكرامة لئن يتكلم مع الحيوانات فيطيعونه ويسمعون أوامره .

(١) ابن مقصد العبدلي ، جـ ٢ من نادرة العلم ، ص (٣١/ ٣٤) .

فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام ، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعو الشجر ، لبناء القيروان واستمر بناء المدينة قرابة الخمس سنوات ، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين ، حتى أصبحت القيروان درة المغرب وشيد عقبة – رضي الله عنه – بها جامعًا كبيرًا أصبح منارة للعلم وملتقى العلماء والمجاهدين .

قال الليث بن سعد : إن عُقبة بن نافع –رضي الله عنه– غزا أفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: يا أهل الوادي أظعنوا فإنا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرات ، فجعلت الحيات تنساب والقارب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة وهم قيام ينظرون إليها في حين أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيئًا ، فنزلوا الوادي عند ذلك قال الليث : فحدثني زياد بن العجلان أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت .

استشهاد عقبة - رضي الله عنه - :

خرج عقبة من القيروان بعد شأن استخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا بأولاده قبل مغادرته القيروان ، وقال لهم : « إني قد بعتُ نفسي من الله –عز وجل– فلا أزال أجاهد من كفر بالله» ، ثم وعظهم ووصاهم ، ثم قال: «عليكم سلام الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » [(١)].

عن عقبة بن نافع الفهري وكان قد استشهد بإفريقية أنه أوصى ولده فقال لهم : « لا تقبلوا الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلا من ثقة ، وإن لبستم العباء، ولا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن » .

وظل عقبة –رضي الله عنه– يجاهد في سبيل الله وينتقل من غزو إلى غزو، ومن فتح إلى فتح حتى وصل إلى مدينة (باغاية) ففتحها وسار إلى (تلمسان) ، وهي من

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة (٥/ ٦٤) ، عن عمارة بن سعد .

أعظم مدائنهم ودار فيها قتالاً عنيفًا ، ثم سار إلى بلاد (الزاب) ففتحها، ثم رحل إلى (تاهرت) فكانت مجمع الروم والبربر ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، فبايع عقبة وأصحابه بيعة الموت في سبيل الله ، فحملوا على الروم والبربر حملة واحد فهزموهم بإذن الله ، ثم سار عقبة بعد ذلك حتى نزل (طنجة) ثم توجه إلى مدينة (وَليلى) وهي من أكبر مدن المغرب ففتحها، ثم سار إلى مغرب طنجة فقاتل جمع البربر في (السوس الأدنى) ثم سار إلى (السوس الأقصى) فقاتل جموع لا تحصى من البربر فهزمهم ، ثم سار حتى انتهى شاطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)، فنزل بفرسه إلى الماء ، وتطلع إلى السماء وقال : (يارب ؛ لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد أحدٌ دونك) ثم انصرف راجعًا لله دره .

وفي سنة ثلاث وستين : ظن القائد البطل عقبة بن نافع - رضي الله عنه - أن البربر مالوا إلى الإستسلام ، وأنهم ليس لديهم استعداد للحرب مرة أخرى، فسبقه جيشه إلى القيروان ، وبقى هو مع ثلاثمائة مقاتل في مدينة (طنجة)، ولمَّا علم بعض أعداء الإسلام بذلك ، وجدوا الفرصة ملائمة للهجوم عليه، وكان على رأس هؤلاء البربر الكاهنة ملكة جبال أوراس ، وفوجئ البطل عقبة بن نافع - رضي الله عنه - عند بلدة (تهعودة) بألاف الجنود من البربر يهجمون عليه ، فاندفع بفرسه متقدًا جنوده يضرب الأعداء بسيفه ، متمنيًا الشهادة في سبيل الله تعالى ، فأحاط البربر به وبجنوده من كل جانب ، فاستشهدوا جميعًا، واستشهد معهم البطل عقبة بن نافع - رضي الله عنه - (١).

(١) راجع سيرة عقبة بن نافع في البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ٤٥)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٤٨٣) ، والمنتظم لابن الجوزي(٦/ ١٠)، وتاريخ الطبري لأبي جعفرا لطبري (٣/ ٢١٠)، وتاريخ اليعقوبي (٢/١٥٦) ، وتاريخ مدينة دمشق لابن هبة الشافعي (٤٠/ ٥٢٥)، وتاريخ خليفة بن الخياط ، لابن الخياط (١/٢٠٦) ، الاستقصاء لأخبار المغرب (١/ ١٣٥)، فتوح البلدان لأحمد البلاوي(١/ ٢٢٩)، فتوح مصر وأخبارها لابن أعين المصري (١/ ٣١٥) .

٥٩

سوء الخُلق يعدي ...

أخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في «الدلائل» بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن أبا معيط كان يجلس مع النبي –صلى الله عليه وسلم– بمكة لا يؤذيه وكان رجلاً حليماً وكان بقية قريش إذا جلسوا معه أذوه وكان لأبي مُعيط خليل (صاحب) غائب عنه بالشام فقالت قريش: صبأ أبو مُعيط وقدم خليله من الشام ليلاً ، فقال لامرأته ... ما فعل محمد مما كان عليه ؟، فقالت: أشد مما كان أمرًا؟ ، فقال : ما فعل خليلي أبو معيط ؟، فقال : صبأ ، فبات بليلة سوء ! فلما أصبح أتاه أبو مُعيط فحيَّاه فلم يرد عليه التحية ، فقال له : ما لك لا ترد عليَّ تحيتي ؟، فقال : كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟، فقال : أو قد فعلتها قريش؟، قال فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلتُ ؟، قال : تأتيه (يقصد الرسول –صلى الله عليه وسلم–) في مجلسه وتبصق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم !! ، ففعل فلم يرُد النبي –صلى الله عليه وسلم– أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال : « إن وجدتك خارجًا من جبال مكة أضرب عنقك صبرًا» فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه وأبى أن يخرج فقال له أصحابه : اخرج معنا ، قال : قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجًا من جبال مكة أن يضرب عنقي صبرًا .

فقالوا : لك جمل أحمر لا يُدرك (أي سريع السير والعدو) ، فلو كانت

الهزيمة طرت عليه ، فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين وحل الوحل (الطين الرقيق) ووحَلَ الرجل ، أي وقع في الطين ، وحل به جمله في جدر من الأرض فأخذه رسول الله -ﷺ- أسيرًا في سبعين من قريش ، وقدم أبو مُعيط فقال: تقتلني من بين هؤلاء ؟ ، قال -ﷺ-: « نعم ، بما بزقتَ في وجهي » .

فأنزل الله - عز وجل - في أبي مُعيط ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الفرقان :٢٧] إلى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان :٢٩] (١).

---

(١) قال الشَّعْبي : كان عقبة خليلاً لأمية بن خلف ، فأسلم عقبة ، فقال أمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمدًا ، وكفر وارتد لرضا أمية !!! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان : ٢٧-٢٩] .
أسباب النزول للنيسابوري (١٨٩) .

٦٠

من سرق خبزتي سوف يظمأ

يروى أن غريبًا صاحب ركبًا في سفره ، وكان مع الغريب خبزة كبيرة يأكل منها ، بينما رفاقه ليس معهم من الزاد غير النذر اليسير (القليل) وأثناء مسيرتهم في ذات ليلة سرقت خبزته عندما كان نائمًا ، ولا يدري ولا يعلم من أخذها وأكلها من رفاقه ، ولا يستطيع أن يتهم أحدًا ليشتكيه إلى رئيس القافلة .

فما كان منه إلا أن سرع إلى قرب الماء وقال في نفسه : إن من سرق خبزتي وأكلها سوف يظمأ الآن ويأتي إلى الماء ليشرب !! ، وبالفعل لم يلبث إلا قليلاً حتى جاءه رجل يلهث من شدة العطش ... فأمسك به وقال له :

لِمَ سرقت خبزتي وأكلتها ؟ ، فأقر الرجل بفعلته واشتكاه إلى رئيس القافلة فأجَبره بغرامها لصاحبها !!! [١].

(١) الفرج بعد الشدة والضيقة ، جـ٦ ، إبراهيم الحازمي برقم ٤٥٠ .

٦١

مالك بن أنس يشترط على هارون الرشيد

حج هارون الرشيد ثم شخص بعد الحج إلى المدينة ، وأراد أن يرى مالك بن أنس الذي سمع من علمه ونبوغه الكثير ، فأرسل يستقدمه فقال مالك للرسول :

« قل للأمير : إن طَلَبَ العِلم يُسعى إليه ، أما العلم فلا يَسعى إلى أحد» .

وأذعن الخليفة وزار مالكًا في داره ، ولكنه أمر أن يُخلى المجلس من الناس، فأبى مالك إلا أن يظل الناس كما كانوا ، وقال : « إذا منع العلم عن العامة ، فلا خير فيه للخاصة »(١) .

(١) الرفيق المؤنس ، عبد الناصر بن محمد المغنم (ص٨) .

٦٢

مرارة الظلم

كان لأحد الأمراء مُدرس يتولى تربيته وتعليمه ، وذات يوم ضربه المدرس ضربًا مبرحًا دون ذنب جناه ، وأسرّها الأمير في نفسه ، حتى إذا كبر وتولى العرش بعد أبيه الملك ، استدعى إليه معلِّمه ليحاسبه .

فقال له : أتذكر يوم ضربتني ضربًا مبرحًا لغير ما سبب ؟، قال : نعم ، قال: إذن فالآن آخذ حقي منك !! ، قال : لا ، فقد ضربتك بلا ذنب لتشعر بمرارة الظلم ، فلا تظلم أحدًا عندما يصير الملك إليك ، فعفا عنه [١].

(١) المصدر السابق .

٦٣

نهاية اتباع الشهوات

ذكر الإمام القرطبي أن رجلاً كان مؤذنًا بمصر لأحد المساجد سنين طويلة، وكان مثالاً لأهل الخير والصلاح ، ترى على وجهه نور الطاعة والعبادة ،وكان يرقى المنارة للأذان كل يوم، وفي أحد الأيام نظر إلى بيت نصراني تحت منارة المسجد فرأى بنت صاحب الدار، فافتتن بها،وترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار.

فقالت له : ماذا تريد ؟.

قال : أريدك أنت .

قالت : لماذا ؟.

قال لها : قد سلبتِ لُبِّي وأخذت بمجامع قلبي .

قالت : لا أجيبك إلى ريبة .

قال : أتزوجك !! .

قالت له : أنت مسلم ، وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك .

قال لها : أتنصر .

قالت : إن فعلت أفعل .

فتنصر فتزوجها ، وأقام معها في الدار ، وقبل الزواج رقى إلى سطح الدار لحاجة له فسقط منه فمات !! ، فلا ظفر بها ولا ظفر بدينه (١).

(١) ذكرها العلامة ابن قيم الجوزية في كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

٦٤

مات أمير المؤمنين ولم يترك شيئًا !!

عن رجاء بن حيوة قال : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد : يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرائي - يعني عمر بن عبد العزيز- الذي مضى بالأمس قد أخذ كل ما قدر عليه من جوهر ثمنين وجعله في بيتين ، فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة وسألها عما أُخبر به ، فقالت : والله يا أخي إن عمر ما ترك سبدًا ولا لبدًا إلا ما في هذا المنديل من الثياب، فحلَّهُ فوجد فيه قميصًا مرقوعًا ورداءً غليظًا قشبًا محشوة غليظة ذاهية البطانة .

قال : ليس عن هذا أسألك ، إنما سألتك عن البيت المقفل ؟! ، فقالت: والذي فجعني يا أمير المؤمنين ما دخلت إلى ذلك البيت منذ ولي عمر الخلافة لعلمي أنه يكره ذلك ، وهذه مفاتيحه فانظر ما فيه ، فإن كان ما يقال لك حق، فحول ما فيه إلى بيت المال .

فجاء يزيد ومعه عمر بن الوليد والناس، ففتحو البيت الأول وإذا فيه كرسي من أدم ، وأربع آجرات مبسوطات ، وقمقم نصفه ماء ، فقال عمر: أستغفرا الله ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجدًا مفروشًا بالحصى، وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق يدخل رأسه فيها ، وكان يجعله في رقبته إذا نعس في الصلاة، وصندوقًا مقفلاً ، ففتح الصندوق فإذا فيه دراعه وثياب من شعر وعطاف من مسوح ، فبكى يزيد وبكى الناس ، واستغفر عمر لاتهامه عمر بما ليس فيه [١] .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، (٩/ ٢٢١-٢٢٢) .

٦٥

عاقبة شهادة الزور في إمام من أئمة المسلمين

عن أبي العباس بن سعيد -المروزي- قال : لما جلس المتوكل دخل عليه عبد العزيزبن يحيى المكي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما رؤى أعجب من أمر الواثق قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دُفن ، قال : فوجد المتوكل من ذلك وساءه ما سمعه في أخيه ، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : يا ابن عبد الملك في قلبي من قتل أحمد بن نصر .

فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار أن قتله أمير المؤمنين إلا كافرًا ، قال: ودخل عليه هرثمة فقال يا هرثمة : في قلبي من قتل أحمد بن نصر ، فقال: يا أمير المؤمنين ! قطعني الله إربًا إربًا أن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا .

قال : ودخل عليه أحمد بن أبي داؤد قال : يا أحمد في قلبي من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ضربني الله بالفالج أن قتلة أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا .

قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار ، وأما هرثمة فإنه هرب، واجتاز بقبيلة خزاعة ، فعرفه رجل في الحي فقال : يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر ، فقطعوه إربًا إربًا ، وأما ابن داؤد فقد سجنه الله في جلده [١].

(١) تاريخ بغداد (٥/ ١٧٧-١٧٨) ، تهذيب الكمال للمزي (١/ ٥١٠-٥١١) في ترجمة الإمام أحمد بن نصر الخزاعي -رحمه الله- .

٦٦

أيمنعني سوادي ودمامة وجهي من دخول الجنة ؟!

عن أنس – رضي الله عنه – قال : جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله! أيمنعني سوادي ودمامة وجهي من دخول الجنة ؟، قال : لا ، والذي نفسي بيده ما أيقنت بربك وآمنت بما جاء به رسوله ، قال : فوالذي أكرمك بالنبوة ، لقد شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله من قبل أن أجلس هذا المجلس بثمانية أشهر ، ولقد خطبت إلى عامة من بحضرتك ومن ليس معه فردوني لسوادي ودمامة وجهي ، وإني لفي حسب من قومي من بني سليم ولكن غلب علي سوادي أخوالي .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « هل شهد اليوم عمرو بن وهب ؟» ، وكان رجلاً من ثقيف قريب من العهد بالإسلام ، قالوا : لا ، قال له : « أتعرف منزله ؟» قال : نعم ، قال : « فاذهب وأقرع الباب قرعًا رقيقًا ثم سلم ، فإذا دخلت فقل: زوجني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتاتكم » ، وكان له ابنة عاتق ، وكان لها حظ من الجمال والعقل ، فلما أتى الباب وقرع وسلم فرحبوا به حيث سمعوا لغة عربية ففتح الباب .

فلما رأو سواده ودمامة وجه انقبضوا عنه ، فقال : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد زوجني فتاتكم ، فردوا عليه ردًا قبيحًا ، فخرج الرجل ومضى حتى أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقالت الفتاة لأبيها : يا أبتاه ، النجا النجا ، قبل أن يفضحك الوحي فإن يك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد زوجني منه فقد رضيت بما رضى الله

ورسوله – ﷺ – .

فخرج الشيخ حتى أتى رسول الله – ﷺ – وجلس في أدنى المجلس فقال له رسول الله – ﷺ – : « أنت الذي رددت على رسول الله ما رددت؟ » ، قال: فعلت وأستغفر الله وظننت أنه كاذب ، فقد زوجناه فنعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، فزوجها منه بأربعمائة درهم .

فقال رسول الله – ﷺ – للزوج وهو سعد السلمي : « اذهب إلى صاحبتك فادخل بها » ، فقال : والذي بعثك بالحق نبيًا ما أجد شيئًا حتى أسأل إخواني .

فقال رسول الله – ﷺ – : « مهر امرأتك على ثلاثة نفر من المؤمنين ، اذهب إلى عثمان بن عفان – – فخذ منه مائتي درهم » ، فأعطاه وزاده ، « واذهب إلى عبد الرحمن بن عوف وخذ منه مائة درهم » ، فأعطاه وزاده ، « واذهب إلى عليَّ فخذ منه مائة درهم » ، فأعطاه وزاده ، فبينما هو في السوق ومعه ما يشتري لزوجته فرحًا قرير العين ، إذ سمع صوت النفير ينادي : يا خيل الله اركبي ،أن منادي رسول الله – ﷺ – ينادي النفير ، فنظر نظرة إلى السماء ، ثم قال : اللهم إله السماوات والأرض وإله محمد – ﷺ – لأجعلن هذه الدراهم اليوم فيما يحب الله ورسوله والمؤمنون ، فاشترى فرسًا وسيفًا ورمحًا ، واشترى مجنًا ، وشد عمامته على بطنه واعتجر ، فلم يُر إلا حماليق عينه حتى وقف على المهاجرين فقالوا : من هذا الفارس الذي لا نعرفه ؟، فقال لهم علي – رضي الله عنه – كفوا عن الرجل ، فلعله ممن طرأ عليكم من قبل البحرين أو من قبل الشام ، فجاء يسألكم عن معالم دينكم فأحب أن يواسيكم اليوم بنفسه ، فأقبل يطعن برمحه ويضرب بسيفه حتى نام به فرسه فنزل وجسر عن ذراعيه وتشمر للقتال، ، فلما رأى رسول الله – ﷺ – سواد ذراعيه عرفه فقال : « أسعد أنت» ، قال نعم ، بأبي أنت وأمي ، قال : « سعد صبرك» فما زال يطعن برمحه

ويضرب بسيفه كل ذلك يقتل أعداء الله إذ قالوا صُرِعَ سعد،فخرج رسول الله -ﷺ- مقبلاً نحوه فأتاه فرفع رأسه ووضعه على حجره ومسح عن وجهه التراب بثوبه وقال: « ما أطيب ريحك وأحبك إلى الله ورسوله » .

قال: فبكى رسول الله - ﷺ - ثم ضحك ثم أعرض بوجهه ، ثم قال : «ورد الحوض ورب الكعبة» ، قال أبو لبابة : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وما الحوض؟، قال: « حوض أعطانيه ربي عرضه ما بين صنعاء إلى بصرى، حافتاه مكللتان بالدر والياقوت ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا » .

فقال: يا رسول الله رأيتك بكيت ثم ضحكت ثم أعرضت بوجهك؟ ، قال - ﷺ -: « أما بكائي فبكيت شوقًا إلى سعد ، وأما ضحكي ففرحت بمنزلته عند الله تعالى وكرامته على الله ، وأما إعراضي فإني رأيت أزواجه من الحور العين يبتدرونه كاشفات سوقهن باديات خلاخلهن ، فأعرضت عنهن حياءً منهن، فأمر بسلاحه وفرسه وما كان له من شيء ، فقال: اذهبوا إلى من زوجه فقولوا: إن الله قد زوجه خيرًا من فتاتكم » [1].

(١)ذكره ابن الأثير في أُسد الغابة (١/ ٤٢٤) ، في ترجمة سعد الأسود السلمي وقال : ما أشبه هذه القصة بقصة جلبيب ، أخرجه أبو موسى ، فذكره ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٩)، في ترجمة ابن عمر بن صالح الكلاعي ، وقال فيه : منكر الحديث عن ثقات الناس ، تنبيه الغافلين للإمام الفقيه السمرقندي .

٦٧

جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة

قال أهل السِّيَر : إن جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة حين رغب في الإسلام أقبل أهل المدينة في موكب كبير ، عليهم ثياب الوشي (أي ثياب مكَّلمة ومخططة)، وهو لابسٌ تاجه! ففرح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بقدومهم، فجاء جاء الموسم خرج للحج مع عمر ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من فزازة محل الإزار ، فلطمه جبلة على أنفه فهشَّمه وسال الدم!.

فاستعدى الفزازي عليه عمر - رضي الله عنه - ، فقال عمر لجبلة : ما دعاك لأن تلطم هذا الفزازي ؟! ، قال : إنه وطء إزاري محلَّه . قال عمر : أما وقد أقررت فإما أن ترضيه ، وإلَّا فعل بك مثلما فعلت به ! قال جبلة : أيضع هذا وأنا ملك وهو سُوقة ؟! .

قال عمر: لقد سوى الإسلام بينك وبينه، فما تفضُلهُ بشيء إلا بحُسن العمل! قال جبلة : والله لقد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزّ منِّي في الجاهلية!.

قال عمر - رضي الله عنه -: إنه لكذالك [١]، قال جبلة : أخري إلى غدٍ حتى أفكر في الأمر يا أمير المؤمنين ، قال عمر : ذلك لك ! .

فلما كان جُنح الليل خرج هو وأصحابه حتى دخلوا القسطنطينية على «هرقل» فتنصر «جبلة» وأقام عنده [٢] .

(١) أي : أنت كذالك عزيز في الإسلام ما دُمت على الحق، والعدوان على الناس ليس من الحق.
(٢) سيرة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للأستاذ / أحمد البلتاجي .

٦٨

إن هذا الدرع درعي

مرَّ عليٌّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – بسوق الكوفة يومًا – أيام خلافته – فإذا به يَمُرُّ أمام يهودي يعرض درعًا للبيع ، فلما رأها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فقدها منذ سنين طويلة ، وعلامتها المميزة عليها ، فقال اليهوديُّ : إن هذه الدرع درعي .

فقال لليهودي: إن هذه الدرع درعي ، فقال اليهودي : بل هي درعي، وأمامك القضاء، ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام شُريح ، فقال شُريح : البينة على من ادَّعى ، فقال عليّ – رضي الله عنه – : إن الدرع درعي وعلامتها كيت وكيت ، وهذا هو الحسن بن على شاهدي على ذلك ، فقال شُريح : يا أمير المؤمنين إني أعلم أنك صادق ، ولكنه ليس عندك بيِّنة ، وشهادة الحسن لا تنفعك ، لأنه ابنك ، وقد حكمنا بالدرع لليهودي .

فهزَّ هذا الموقف اليهودي فقال: والله إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أُنزل على موسى ، وإنه لدين حق ، ألا إن الدرع درع أمير المؤمنين ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله [١].

(١) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، للأستاذ/ محمد فهمي عبد الوهاب (ص ٧٦/ ٧٧) .

٦٩

دقة بدقة ... ولو زدت لزاد السَّقا !!!

جاء في تفسير (روح المعاني) للإمام الألوسي : حُكى أن رجلاً سَّقاء بمدينة (بخارى) كان يحمل الماء إلى دار صائغ مدة ثلاثين سنة ، وكان لذلك الصائغ زوجة صالحة في نهاية الحُسْن والبهاء ، فجاء السَّقاء يومًا على عادته ، وأخذ بيدها وعرَّها !! (١) .

فلما جاء زوجها من السوق قالت : ما فعلت اليوم خلاف رضا الله تعالى، فقال: ما صَنعت شيئًا ، فألحت عليه فقال: جاءت امرأة إلى دكاني وكان عندي «سوار» (٢) فوضعته في ساعدها فأعجبني بياضها فعصرتها، فقالت: الله أكبر ، هذه حكمة خيانة السقاء اليوم ، وقصت عليه القصة ، وفي رواية أنها قالت : « دقة بدقة ولو زدت لزاد السَّقا!! فقال الصائغ : أيتها المرأة إني تبت فاجعلني في حلَّ فلما كان الغد جاء السقا قال: يا صاحبة المنزل اجعليني في حلَّ فإن الشيطان قد أضلني ، فقالت : امض فإن الخطأ لم يكن إلا من الشيخ الذي كان في الدكان ، فإنه لَمَّا غير حاله من الله بمس الأجنبية غير الله حالة معه بمس الأجنبي زوجته !! (٣).

---

(١) عرَّها : مسها بشهوة .
(٢) السوار : أسورة تُلبس في معصم اليد .
(٣) قال الفضيل بن عياض : إني لأعصي الله فأجد أثر ذلك في سوء خُلق دابتي وزوجتي !! .

٧٠

اتَّقِ الله في الرَّعيَّة

خرج عمر - رضي الله عنه - يومًا على السوق ومعه الجارود، فإذا امرأة عجوز فسلَّم عليها عُمرُ فردَّت عليه ، وقالت : هيهِ يا عُمَيْرُ : عهدتك وأَنْت تُسمَّى عُمَيْرًا في سوق عُكاظ تُصارعُ الصبيان فلم تذهب الأيام حتى سمعتُ عُمر، ثم قيل: سمعت أمير المؤمنين .

فاتَّقِ الله في الرعية ، واعلم أنه من خافَ الموت خشيَ الفوت، فبكى عمر - رضي الله عنه -، فقال الجارُودُ : لقد اجترأتِ على أمير المؤمنين وأبكيته ، فأشار إليه عمر - رضي الله عنه - : أن دعْهَا .

فلما فرغ قال : أما تعرف هذه ؟ ، قال : لا ، قال : هذه خَوْلَة ابنةُ حكيم التي سمع الله قولها ، فَعُمرُ أحرى أن يسمع كلامها ، أشار إلى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة:١] ، وهي خولة هذه [١].

(١) الشفاء في تعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض (٨٧) .

٧١

لو رأيت ملكًا يريد قبض روحك لسبقته إليها

قال أبي عاصم: ووجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق، فأطلق أهل سجون الحجاج، وضايق على يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فظفر به بعد ذلك يزيد لما ولى أفريقية فجعل محمد يقول : اللهم احفظ لي إطلاق الأسرى، وإعطاء الفقراء ، فلما دنا يزيد منه وفي يده عنقود قال: يا محمد ما زلت أسأل الله أن يظفرن بك ، فقال له محمد : وما زلت أستجير الله منك، قال: فوالله ما أجارك ولا أعاذك مني ، والله لأقتلنك قبل أن آكل هذه الحبة من العنب ، والله لو رأيت ملكًا يريد قبض روحك لسبقته إليها ، وأقيمت الصلاة، ووضعت حبة من العنب بين يديه ، وتقدم فصلى بهم ، وكان أهل أفريقية قد اجتمعوا على قتل يزيد ، فلما ركع ضربه رجل بعمود فقتله ، وقيل لمحمد : اذهب حيث شئت [١].

(١) انظر حدائق الأزاهر (ص٣٣٧)، لأبي بكر محمد بن محمد بن عاصم الفرناطي (٧٦٠هـ إلى ٨٢٩هـ) .

٧٢

دية الضرطة

أورد ابن مقصد العبدلي في نادرة معالم العلم :

عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال : صلى أشعب يومًا إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان ، وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت ، فانصرف أشعب من الصلاة فوهم الناس أنه هو الذي خرجت منه الريح ، فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له : الدية، فقال : دية ماذا ؟، فقال : دية الضرطة التي تحملتها عنك ، والله وإلا شهرتك، فلم يدعه حتى أخذ منه شيئًا صالحًا [١].

لطيفة : قال الأصمعي عن أبيه : أتى عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال : اضربوا عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك، فقال: وما جزاؤك ؟، فقال : والله ما خرجت مع فلان ابن فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشئوم؟، ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما أديت وكنت عليك خيرًا من مائة ألف معك تنصحك، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه ، وكنت مع فلان فقُتل وكنت مع فلان فهُزم حتى عد جماعة من الأمراء ، فضحك وخلى سبيله [٢].

---

(١) نادرة معالم العلم لابن مقصد العبدلي ، جـ ١ (ص ٥٤٩) .
(٢) المصدر السابق .

٧٣

قضى دينه وأخرجه من الحبس ولم يعلم أحد إلا بعد موته

روى محمد بن عيسى فقال : كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس وكان ينزل الرقة في خانٍ ، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث .

فقدم عبد الله مرة فلم ير ذلك الشاب ، وكان مستعجلاً فخرج في النفير، فلما قفل من غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب ، قال : فقالوا : إنه محبوس لدين ركبه ، فقال عبد الله : وكم مبلغ دينه ؟، فقالوا : عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم وحلَّفه أن لا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، فأخرج الفتى من الحبس، وقيل له : عبد الله بن المبارك كان ها هنا ، وكان يذكرك ، وقد خرج ، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة ، فقال : يا فتى أين كنت لم أراك في الخان ؟ .

قال : نعم يا أبا عبد الرحمن ، كنت محبوسًا بدين ، قال : فكيف كان سبب خلاصك؟، قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أُخرجت من الحبس.

فقال له عبد الله : يا فتى احمد الله على ما وفق الله من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله بن المبارك (١).

(١) تاريخ بغداد(١٠/ ١٥٩) .

٧٤

عجوز بني إسرائيل

عن أبي موسى الأشعري قال : أتى النبي -ﷺ- أعرابيًا فأكرمه فقال له : «ائتنا» ، فأتاه فقال رسول الله -ﷺ- : « سل حاجتك» ، فقال : ناقة نركبها وأُعنزاً يحلبها أهلي ، فقال رسول الله -ﷺ- : «عجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل ؟» ، قالوا : يا رسول الله ! وما عجوز بني إسرائيل ؟، قال : «إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلو الطريق فقال: ما هذا ؟، فقال : علماؤهم: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا تخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا ، قال : فمن يعلم موضع قبره ؟، قال : عجوز من بني إسرائيل ، فبعث إليها فأتته ، فقال : دُليني على قبر يوسف ، قالت : حتى تعطيني حكمي ، قال : ما حكمك؟ ، قالت : أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك فأواحى الله إليه أن أعطها حكمها ، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء ، فقالت : انضبوا هذا الماء فأنضبوا [١] ، قال : احتفروا واستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلُّوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار» [٢] .

(١) انضبوا الماء : انقلوه وارفعوه .
(٢) الحديث حسن : رواه أبو يعلى في مسنده (٧٢٥٤) ، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٤٣٥)، وصححه وقال الهيثمي : رواه الطبراني وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح «من فقه الدعاء» للشيخ / مصطفى العدوي ص (٣٩) .

٧٥

قصة الإسراء والمعراج (١)

ظل رسول الله -ﷺ- يدعو أهل مكة حتى أذاقوه - وهو ومن معه- سوء العذاب، وكانت أكبر مصائبهم أمر المقاطعة التي ظلت ثلاث سنين ثم نقضت هذه الصحيفة الظالمة، ووافق ذلك موت أبي طالب وخديجة - وبينهما زمن يسير - المدافعين عن رسول الله -ﷺ- فلما رأى أرض مكة قيعان لا تنبت كلأ ولا تقبل زرعًا قام ليبحث عن أرض نقية طيبة لينشر دعوته.

فماذا حدث ؟، خرج إلى الطائف وبينها وبين مكة مائة كيلومتر قطعها النبي -ﷺ- على قدميه يجوب الجبال ويقطع الأودية لا همَّ له إلا الله.

خرج إلى أهل الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله - عز وجل- فلم ير من يؤوي ولم ير ناصرًا، وآذوه -ﷺ- مع ذلك أشد الأذى، ونالو منه ما لم ينله قومه، وكان معه زيد بن حارثه مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحد من أشرافهم إلا دعاه وكلمه -ﷺ-.

فقالوا: أُخرج من بلدنا، وأعزوا به سفهاءهم، فوقفوا له صامتين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت ونزل الدم من خير قدمين، ورجع -ﷺ- باكيًا محزونًا وكأنه يقول: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟، إلى بعيد يتجهمني ؟، أو عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب

(١) حكايات الرسول - ﷺ - ، د. مصطفى مراد، ص (١٦٠).

عليَّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل عليَّ غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (١) .

رجع المصطفى -ﷺ- وعليه علامات الحزن ؛ ما الله بهه عليم ، استمع إلى هذا المشهد الذي يصوره لنا الشيخان عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت : يا رسول الله ؛ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟.

فقال -ﷺ-: « لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجيبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلَّمَ عليَّ ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله -ﷺ-: بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئًا (٢).

وبعد هذه المعاناة انتهى الحبيب إلى مثله فأرسل رجلاً من خُزاعه إلى مُطعم بن عدي : أدخل في جوارك ؟،فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه ، فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإني قر أجرت محمدً، فدخل رسول

(١) ضعيف: ولذا لم أذكره من كلامه - ﷺ- أخرجه ابن هشام (١/ ٢٠٦)، عن محمد ابن كعب القرطبي مُرسلا ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٥) ، في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ورواه مسلم في صحيحه (١٧٩٥) ، في كتاب الجهاد باب ما لقي النبي -ﷺ- من أذى المشركين والمناقضين .

الله -ﷺ- ومعه زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى : يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا ، فلا يهجه أحد منكم ، فانتهى رسول الله -ﷺ- إلى الركن ، فاستلمه وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده مُحدقون به بالسلاح حتى دخل بيته[1].

أرأيت الكافر يؤوي أعدى أعدائه ، أسمعت المشرك ينصر هادم دينه ، فلو كان النبي -ﷺ-في عصرنا أو في بلاد الروم أو الفرس - أمريكا وروسيا - لقُتل أشنع قتل .

وبعد هذه المحنة تأتي المنحة وكأن الله تعالى يقول لنبيه -ﷺ- يا محمد إن كان أهل الطائف قد عزموا على تشريدك وتعذيبك فإن الكريم قد عزم على تكريمك، وهنا تأتى أعظم رحلة لمخلوق .

الداعي فيها : الله مالك الملك وملك الملوك .

المدعو فيها : هو محمد رسول الله -ﷺ- .

حامل بطاقة الدعوة : جبريل أمين وحي السماء .

قصر الضيافة : سدرة المنتهى التي ينتهي إليها علم الخلائق عندها جنة المأوى، إنها معجزة ومعجزات أمر خارق للعادة .

يا علماء الكمياء تقولون السماء لا تقبل الخرق ، وهذه معجزة النبي -ﷺ- لم ير بنفسه وإنما النبي أُسري به ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ [الإسراء : ١] .

(١) زاد المعاد ، وسيرة ابن هشام ، البداية والنهاية وغيرهم .

نزه الله عما في عقلك ، إنه القادر القدير ، السميع البصير ، وتعالى معي لتمتع سمعك وبصرك برحلة مخلوق علا على كل المخلوقات جميعًا ، وهي رحلة الإسراء والمعراج .

قال رسول الله -ﷺ-: « بينما أنا في الحطيم مضُطجعًا إذا أتاني آت فقد (أي فقطع) ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا فغسل قلبي بماء زمزم ، ثم حُشي ، ثم أُعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض يقال له البُراق ، يضع خطوة عند أقصى طرفْه ، فحُملت عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، قيل : من هذا ؟، قال جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم . قال : مرحبًا به ، فنعم المجئ جاء ، ففُتح ، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال : هذا أبو أدم فسلِّم عليه ، فسلمت عليه ، فردَّ السلام ثم قال : مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم ، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجئ جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما ، فسلمت فردًا ، ثم قالا : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة ، فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم ، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجئ جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا يوسف، قال : هذا يوسف فسلِّم عليه ، فسلمت عليه فردَّ ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى إلى السماء الرابعة : فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ،

قال : نعم ، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا إدريس قال : هذا إدريس ، فسلَّم عليه ، فسلمتُ ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا هارون ، قال : هذا هارون فسلّم عليه ، فسلمت عليه ، فردَّ ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا موسى ، قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فردَّ ، ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى ، قيل له : ما يبكيك ؟، قال : أبكي لأن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي .

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟، قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد . قيل : وقد أُرسل إليه؟ ، قال : نعم ، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففُتح فلما خلصت إذا إبراهيم قال : هذا إبراهيم فسلّم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال : مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح .

ثم رُفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟، قال : أما البطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رُفع لي البيت المعمور ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟، قال : هذا البيت المعمور يدخل كل يوم سبعون ألف ملك ،إذا خرجوا منه

لم يعودوا إليه آخر ما عليهم ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن ، وإناء من عسل، فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك .

ثم فُرِض عليَّ خمسون صلاة ، كل يوم فرجعت ، فمررت على موسى ، فقال: بِمَ أُمرت ؟، قيل : بخمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جرَّبتَ الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد مُعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فوضع عني عشرًا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرًا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرًا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرًا ، فأُمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قلت: سألت ربي حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما جاوزت ناداني مُنادِ : أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي (١).

وهناك زيادات أخرى للحديث في روايات أخرى منها عند أحمد وغيره «حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحقة التي يربط فيها الأغنياء ، ثم دخلت فصليت فيها ركعتين ، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل : أصبت الفطرة » .

وعند البخاري أنه لما قابل آدم قال: « فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يسارة أسودة إذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكى ، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والإبن الصالح ، قال : قلت لجبريل: من هذا ؟، قال : هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل

---

(١) رواه أحمد والشيخان والنسائي عن مالك بن صعصعه .

الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى » .

هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة وفي صحيح مسلم في كتاب الإيمان بنحوه .

٧٦

إن هذا الأسخى مني

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها ، فأتي بثلاثة أقراص ، فدخل كلب فدنا منه ، فرمى إليه بقرص، فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكلها ، وعبد الله بن جعفر ينظر إليه، فقال: يا غُلام ، كم قوتك كل يوم ؟، قال : ما رأيت ! قال : فلم أثرت الكلب؟، قال: لأن أرضنا ليست بأرض كلاب ، وإنه قد جاء من مسافة بعيد جائعًا، فكرهت رده ! .

قال : فما كنت صانعًا اليوم ؟ ، قال : أطوي يومي هذا!، فقال له عبد الله ابن جعفر : والله إن هذا لأسخى مني ، فاشترى النخل والعبد وأعتقه ووهب ذلك له !! [١].

(١) أنيس الأسرة المسلمة ، لحمود عبد الله المطر (ص ٢٢٨) .

٧٧

المهدي والأعرابي

يقول أبو المنذر في كتابه متعة النفوس : خرج المهدي (الخليفة العباسي) مرَّة إلى الصيد فغار به فرسُهُ حتى أوصله إلى خباء أعرابيّ ، فقال: يا أعرابي، هل من قِرى ؟، فأخرج له الأعرابيُّ قُرْصَ شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، فلما شرب قال : أتدري من أنا ؟ ، قال : لا ، قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصَّة ، قال : بارك الله لك في موضعك ، وزادك من خيره ونعيمه .

ثم سقاه مرة أخرى فشرب قال : يا أعرابي ؛ أتدري من أنا ؟ ، فقال : ألم تزعم أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ؟ ، قال : بل أنا من قواد أمير المؤمنين. قال : رحبت بلادك وطال مرادُك ، ومتعك الله فيما بقى من عمرك .

ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ قال : يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟، قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين . قال : لا ، ولكني أمير المؤمنين نفسه .

قال : فأخذ الأعرابي الإناء من يده ، وقال : إليك عني ، فوالله لو شربت الرابعة لزعمت أنك رسول الله -ﷺ-، فضحك المهدي حتى غشى عليه ، ثم إن الخيل لم تلبث أن أحاطت بالخباء ، ونزلت إليه القادة والأشراف فارتعد الأعرابي المسكين ، وكاد يطير قلبهُ فقال له المهدي : لا بأس عليك يا أخا العرب ، ثم أمر له بكسوة ومالٍ جزيل (١).

(١) متعة النفوس لأبو المنذر خليل بن إبراهيم بن أمين (ص ٢٨٢) .

٧٨

الوفاء مبارك وحسن العهد والصحبة من الإيمان

ذكر ابن الجوزي في «المنتظم» وابن كثير في «البداية والنهاية» أن المأمون بلغة أن رجلاً يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة [(١)]، فيبكي عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يئس من الحياة ، فقال لك : ويحك ! ما يحملك على صنيعك هذا ؟، قال : يا أمير المؤمنين إنهم أسدو إليَّ معروفًا وخيرًا كثيرًا، فقال : وما الذي أسدوه إليك ، فقال : أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق ، كنت بدمشق في نعمة عظيمة وواسعة فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري، ثم لم يبق لي شيء ، فأشار بعض أصحابي عليّ بقصد البرامكة في بغداد ، فأتيت أهلي وتحملت بعيالي فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة ، فأنزلتهن في مسجد مهجور ، ثم قصدت مسجدًا مأهولاً أصلي فيه ، فدخلت مسجدًا فيه جماعة لم أر أحسن وجوهًا منهم ، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلامًا أطلب منهم قوتًا للعيال الذين معي ، فيمنعني من ذلك السؤال الحياء ، فبينما أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم، فدخلوا دارًا عظيمة فإذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله ، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ، ونثروا فِلَق المسك وبنادق العنبر، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينا ، ومعها فتات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيتُ أنا جالسًا ، وبين يدي الصنية

---

(١) البرامكة : ينتسبون إلى يحيى بن خالد البرمكي استعملهم وتولوا الوزارة وكانوا من المقربين وقضى عليهم الرشيد أخو المأمون .

التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي ، فقال لي بعض الحاضرين : ألا تأخذها وتذهب ؟، فمددت يدي فأخذتها ، فأفرغت ذهبها في جيبي وأخذت الصينية تحت إبطي وقمت ، وأنا خائف أن تؤخذ مني ، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إليَّ وأنا لا أشعر ، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فيئست من المال ، فلما رجعلت قال لي : ما شأنك خائف؟، فقصصت عليه خبري، فبكى ثم قال لأولاده خذوا هذا فضموه إليكم .

فجاءني خادم فأخذ مني الصينية والذهب وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد ، وخاطري كله عند عيالي ، ولا يمكنني الإنصراف ، فلما انقضت العشرة الأيام جاءني خادم فقال : ألا تذهب إلى عيالك ؟! ، فقلت : بلى والله، فقام يمشي أمام ولم يعطني الذهب ولا الصينية ، فقلت : يا ليت هذا كان قبل يؤخذ مني الصينية والذهب ، يا ليت عيالي رأوا ذلك فسار يمشي أمامي إلى دار لم أر أحسن منها ، فدخلتها فإذا عيالي يتمرغون في الذهب والحرير فيها ، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وكتابًا فيه تمليك الدار بما فيها وكتابًا آخر فيه تمليك قريتين جليلتين ، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش، فلما أُصيبوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين وألزمني بخراجهما ، فكلما لحقتني فاقة ، قصدت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم .

فأمر المأمون برد القريتين ، فبكى الشيخ بكاءً شديدًا فقال المأمون : مالكِ؟، ألم أستأنف بك جميلاً ؟ ، قال : بلى ! ولكن هو من بركة البرامكة .

فقال له المأمون: امض مصاحبًا فإن الوفاء مبارك ومراعاة حُسن العهد والصحبة من الإيمان (١).

(١) البداية والنهاية (٦٣٠/ ٩) .

٧٩

اللهم أعمِ بصرها وألقها في بئرها [١]

يحلو لبعض الناس أن يتشق بالكذب ليشفي غليله ويرضي شيطانه ، فيتهم البرئ بأفظع التهم ، ويلصق به أشنع الإفتراءات ، وهذا ما حصل من المرأة الظالمة أروى بنت أويس مع الصحابي الجليل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، إ اتهمته بما هو برئ منه وادَّعت عليه ما كذبت فيه ولكن الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

ففي زمن بني أمية وقعت لسعيد بن زيد - رضي الله عنه - حادثة عظيمة ظل أهل يثرب يتحدثون عنها زمنًا طويلاً ، وقد ذكرها البخاري في صحيحه ومسلم في صحيحه وغيرها ، وذكرتها كتب السير وذلك أن أروى بنت أويس زعمت أن سعيدًا قد غصب شيئًا من أرضها وضمها إلى أرضه ، وجعلت تتحدث بذلك بين الناس ، ثم تطاولت في شرها فرفعت أمرها إلى والي المدينة مروان ابن الحكم ، فأرسل مروان إلى سعيد أناسًا للإصلاح فصعب الأمر على سعيد، وقال : يَرونَني أظلمها ، وكيف أظلمها وقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**من ظلم قيد شبر طوَّقه يوم القيامة من سبع أراضين** » [٢] .

ثم دعا -رضي الله عنه- إذ هو مظلوم وقال : اللهم إنها قد زعمت أني ظلمتها فإن كانت كاذبة فاعم بصرها وألقها في بئرها التي تنازعني فيها ، وأظهر من حقي نورًا يبين للمسلَمين أني لم أظلمها ، فلم ي مضي على ذلك غير زمن يسير

(١) اتق دعوة المظلوم للحجري ، (ص ٥٣-٥٤) .
(٢) رواه الشيخان .

حتى مال العقيق بالمدينة سيلاً عظيماً كشف الله به الحد الفاصل بينهما ، وظهر للمسلمين أن سعيدًا كان صادقًا .

ولم تلبث المرأة بعد ذلك إلا شهرًا حتى عميت وبينما هي تطوف في أرضها تلك سقطت في بئرها التي تنازع سعيدًا فيها، قال عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –: فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول للإنسان : أعماك الله كما أعمى أروى ».

ولا عجب في ذلك فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : « **واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** » فكيف إذا كان المظلوم سعيد بن زيد المبشر بالجنة – رضي الله عنه – [1].

ولو أن أهل المظالم والخصومات وقفوا على هذه الحادثة وأمعنوا النظر فيها لتركوا المظالم واحتكموا إلى الإنصاف ، ورضوا بالحلال وتركوا الحرام، وعلموا أن الله بالمرصاد لكل من تسول له نفسه لأخذ حقوق المسلمين والتسلط عليهم بالبُهتان والزور ، فليعلم الظالم أن الله تعالى لا يتركه وليعلم المظلوم أن الله لا يخذله .

يقول أبو العتاهية يوم أن سجنه الرشيد ظلماً مخاطبه بقوله :

أما والله إن الظُلم شؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا ... غدًا عند المليك من الملوم

فأطلقه الرشيد من السجن ثم أعطاه ألف دينار ، واستباحه من ظلمه له [2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ، جـ١ ، وصفة الصفوة جـ١ ، وصور من حياة الصحابة جـ٣ ،والإصابة جـ٤ ، والاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ .

(٢) البداية والنهاية الجزء العاشر .

٨٠

إذا وصلك كتابي هذا مع حامله فاضرب عنقه وابعث لي برأسه سريعًا

يقول سعد الحجري : إذا خلت القلوب من الإيمان استحوذ عليها الشيطان ليبدد مالها ويهتك عرضها ويسوّد وجهها ، وكم من النفوس الضعيفة التي تقدم الهوى والشهوة على مراقبة الله .

وفي ترجمة أحمد بن طولون أمير الديار المصرية وباني الجامع المنسوب إلى طولون ، ذكر الإمام ابن كثير في تاريخه أن ابن خلكان حكى أن طولون لم يكن أبا أحمد هذا وإنما تبناه ، والله أعلم .

وقال ابن عساكر : إنه من جارية تركية اسمها هاشم ، ونشأ أحمد في صيانة وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن العظيم مع حُسن الصوت به ، وكان يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونه من المحرمات والمنكرات ولعل هذا هو الذي دعا طولون إلى تبنيه . وقد بعثه مرة إلى حاجة في القصر يقضيها ، فلما دخل دار الإمارة إذا بحظية من حظايا طولون مع بعض الخدم وهما على فاحشة ، فأخذ حاجته التي أمره بها ثم رجع سريعًا ، ولم يذكر لطولون شيئًا مما رأى فتوهمت الحظية أن يكون أحمد قد أخبر طولون بما رأى فجاءت إلى طولون بما رأى ، فجاءت إلى طولون وقالت : إن أحمد جاءني الآن إلى المكان الفلاني وراودني عن نفسي وانصرفت إلى مقرها .

فوقع في نفس طولون صدقها فاستدعى أحمد وكتب معه كتابًا وختمه إلى

بعض آمرائه ولم يواجه أحمد بشيء مما قالت الجارية ، وكان مما كتب طولون أن ساعة وصول حامل هذا الكتاب إليك تضرب عنقه وتبعث برأسه سريعًا إليَّ، والله تعالى هو الذي يطلع على السرائر ويعلم الأعمال ويكشف النوايا ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . خرج أحمد بالكتاب سريعًا إلى من وجه له وهو لا يدري ما بداخله، فاجتار بطريق تلك الحظية فاستدعته إليها فقال: إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلى بعض الأمراء ، قالت: هلمَّ فلي إليك حاجة ، وأرادت أن تحقق في ذهن الملك طولون ما قالت له عنه فحبسته عندها ليكتب لها كتابًا ، ثم استوهبت من أحمد الكتاب الذي أمره طولون أن يوصله إلى ذلك الأمير فدفعه إليها فأرسلت به ذاك الخادم ، الذي وجد معها على الفاحشة ، وظنت أن به جائزة تريد أن تخص بها ذاك الخادم فذهب الخادم بالكتاب إلى ذلك الأمير فلما قرأه قال : أتدري ما الذي فيه ؟، قال : لا أعلم غير أنه كتبه الملك بيده ، وأرجو أن يكون قد أوصاك بي خيرًا لتعطيني من المال .

قال له : بل أوصاني الملك بك شرًا أمرني أن أقطع رقبتك وأن أبعث له برأسك، قال : أيها الأمير والله ما هذا الكتاب لي ، قال : فلماذا تحمله وكيف تأخذ شيئًا ليس لك ؟، اعلم أنني لن أراجع الملك في أمره ، فأمر بقطع عنقه، وأرسل برأسه للملك طولون ، فتعجب الملك من ذلك وقال أين أحمد ؟، فأُحضر له قال: أخبرني كييف صنعت منذ خرجت من عندي فأخبره بالخبر الكامل .

وهكذا يحفظ الله أولياءه أهل القرآن ، أهل ا لمعروف والنهي عن المنكر، ولما علمت المرأة بالخبر ضاقت عليها الدنيا بما رحبت فقامت تعتذر للملك واعترفت بالحق وبرأت أحمد ، فحظى أحمد بالمقام الرفيع عند الملك وأوصى له بالمُلك بعده [١]. [٢]

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ١١ .
(٢) اتق دعوة المظلوم ، سعد الحجري ، ص (٨٨/ ٨٩) .

٨١

اللَّطف الخفي

قال ابن مقصد العبدلي في نادرة معالم العلم:

روى أن بعض الأخيار الأمناء استودعه بعض الملك جوهرة نفيسة فسقط منه فانكسرت أربع فلق ، فدخل على ذلك الرجل من الغمِّ والخوف من الملك ما لا يطيق ، فعزم على الهرب فلقيه شخص ، فقال له : أراك محزونًا مهمومًا؟، فذكر له قصته وما أصابه من الضيق والخوف ، فعلمه هذه الأبيات :

كم لله من لطفٍ خفي   يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتى من بعد عسرٍ   وفرج كربه القلب الشجي
وكم أمر تساء به صباحًا   وتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال   يومًا فثق بالواحد الفرد العلي

وقال له : قلها وكررها فالفرج يأتيك من الله تعالى .

ففعل ما أمر به ، فبينما هو كذلك إذا برسول الملك قد جاء وقال له : إن الملك يريد أن يقسم الجوهرة بين أبنائه الأربعة ، فانظر صائغًا عارفًا يكسر الجوهرة، التي عندك أربع فلق لا يزيد ولا ينقص ، وأكد عليه ذلك .

تـذكـر جمـيـلي إذا كنت نطفة ولاتنس تصويري لشخصك في الحشا
وكـن واثـقًـا بي في أمـورك كلها سأكفيك منها ما تخاف وتخشى
وسلم إلى الأمـر واعـلـم بأنني صرفت أحكامي وأفعل ما أشاء [1]

(١) نادرة معالم العلم لابن مقصد العبدلي جـ ١، ص (٥٤٨/ ٥٤٩) .

٨٢

بين الأخطل وعبد الملك بن مروان

قال أبو المنذر في متعة النفوس دخل الأخطل يومًا على عبد الملك بن مروان وهو مغموم وعنده رجل كان الأخطل يحسده ويعارضه ، فقال الأخطل :

يا أمير المؤمنين ، عهدي بأبي هذا الفتى وهو سيدنا معشر بني جُشم ، وشيخنا الذي نصدر عنه رأيه ، فاهتزَّ لها الفتى طربًا وقال : يا أمير المؤمنين، هو أعلم بنا قديمًا وحديثًا .

فقال الأخطل : إن أباه أمرنا ذات يوم وقد نوَّرت الرياض أن نخرج إلى روضة في ظهر بيوت الحي فتتحدث فيها ، فخرجنا وانبسطنا لعبًا ، وخرج الرجل منَّا بالبكرة الكوماء وبالخروف والجري ، وقام الغنشيان فاجتزوا واشتووا ، ودارت السقاة علينا ، فبينما نحن كذلك إذ رعف أبوه فما تركنا في الحي روثة حمار إلا نشقناه إياهم فلم يرقأ دمه .

فقال لنا شيخ : شدُّوا خصي الشيخ عصبًا ، ففعلنا فرقأ الدم ، فوالله ما دارت الكأس إلا دورة حتى أتانا الصريخ عن أمه أنها قد رعفت فبادرنا إليها، فوالله ما درينا ما نعصب منها حتى خرجت نفسها ، وعبد الملك يفحص برجليه ضحكًا، والفتى يقول: كذاب والله ، فقال عبد الملك : ألم تزعم أنه أعلم بقديمكم وحديثكم [١] .

---

(١) متعة النفوس (ص ١٠٨/ ١٠٩) .

الفهرس